حنين الحُبّ

تأليف

أسامه كامل أبو شقرا

حنين الحب

الطبعة الأولى

في بيروت 2016

ردمك 978-614-01-2033-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكل الطرق والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والكومبيوتر وغيرها إلا بإذن خطي من المؤلف:

أسامه كامل أبو شقرا

E-mail: clc74oac@gmail.com

بيروت لبنان

أعمال سابقة للمؤلف

دليل الموضوعات في آيات القرآن الكريم – الطبعة الأولى – بيروت – 2001.

أصول تطبيق قانون الضريبة على القيمة المضافة – الطبعة الأولى – بيروت – 2002. الطبعة الثانية – بيروت 2004.

المسيح (عليه الصلاة والسلام) في القرآن – الطبعة الأولى – بيروت 2004.

الاقتصاد في القرآن – الطبعة الأولى – بيروت – 2007.

تحقيق كتاب – أعمال غير منشورة في كتاب لعارف يوسف أبو شقرا – الطبعة الأولى – بيروت – 2011.

Jesus – Christ et la Vierge Marie dans le Coran – 1ere édition – Beyrouth – 2013

وهو ترجمة لكتابه: المسيح (عليه الصلاة والسلام) في القرآن.

المحتويات

مختار القرية
الأسد والكلب والحمار
المعزى والثلاثة العوران
الغراب الملك
"بليق" والأصيلة
وصية والد
حنين الحب
قتله بخله
العِنادُ لا علاجَ له
الغراب القائد
القطَّة والفأرة
الشيخ أبو علي بشير
المجنون والمئذنة
ليس حُبًّا
بيطرة الجمال
جون وماري
ابنة سليم

غربة شفيق

الكلب والعليقة

دامي السيلانية

اللين والعنف

العنز والشاة

ذكاء وبداهة صبيٍّ

الأعمار بيد الله

أعمال سابقة للمؤلف

المقدمة

خاطبني قلمي يوماً، قائلاً: يا سيدي، لقد مضى على ريشتي سنواتٌ عديدةٌ وهي تخطُّ أرقاماً يابسة جامدة لا حياة فيها، ألا يحق لها، بعد هذه المدة، أن ترسم حروفًا تبنى كلماتٍ ذوات معانٍ وصور؟

فأجبته: بلى يا صديقي ورفيقي، على دروب هذه الحياة الدنيا، لقد آن الأوان. فبلِّغ ريشتك بأنها ستتحول إلى رسم الكثير من كلمات يكون فيها غذاء الروح، ولكن من دون التخلي عن العشرة والمائة والألف، اللاتي وفّرت لنا، أنا وعائلتي، وعلى مدى عقودٍ طويلة، طعاماً يغذّي أجسادَنا وشراباً ينعشُها ومنازلَ نأوي إليها وننعم بالسكينة فيها.

ووفاء لهذا الوعد، وضعت الكتب وسطرتُ المقالات في موضوعاتٍ متنوعة، والقطعَ الأدبية.

وها أنا اليوم أقدم لقرّائي الأعزاء كتابي هذا وفيه مجموعة من القَصصِ والحكايات، منها ما هو رمزي جالت وقائعها في أرجاء مخيلتي إثر أحداثٍ معينة حصلت في حينها، ومنها ما استقيته من واقع الحياة أو من أفعالٍ رسمَتْها ونفَّذَتْها مشيئة القدر.

حزيران 2016

أسامه كامل أبو شقرا

مختار القرية[8]

في النصف الأول من القرن العشرين كانت وسائل التواصل، فيما بين اللبنانيين المقيمين وإخوانهم في بلاد الاغتراب، لم تزل تقتصر في معظمها على الرسائل البريدية المنقولة بحراً، والتي كان يستغرق وصولها، أحيانا كثيرة، الأشهر الثلاثة.

وكان أبناء بعض المناطق في جنوب لبنان إذا أرادوا إقامة مشروع حيويٍ في قراهم، يبعثون أحد وجهاء القرية إلى بلاد الاغتراب يجول حيث تقيم تجمعات من أبناء منطقتهم فيجمع التبرعات الكافية للمشروع المنوي إنشاؤه.

وصادف مرة أن التقى أحد أولئك المبعوثين في إحدى جولاته، امرأة من إحدى القرى المجاورة لقريته، فسألته ملهوفة: بالله عليك زودني بأخبار قريتي. فقال لها: لقد

[8] قصة واقعية رواها لنا المرحوم رضا بك الثامر. (كتبتها في 2012/8/25)

أصبح أخوكِ مختار القرية. فانفجرت تلك المرأة بالبكاء وسالت الدموع على وجنتيها.

فسألها متعجبًا: أخبرك بأن أخاكِ أصبح مختار القرية فعوضاً عن المسرة أراكِ تبكين؟؟؟!!!

فأجابته: اعذرني فإنني أبكي هذه القرية التي لم يبقَ فيها سوى أخي يصلح أن يكون مختارها!!

فيا إخواني الا ترون معي أنه يتوجب علينا، نحن في هذه الأيام، البكاء والنحيب، أو حتى أكثر، حسرة على لبنان من هؤلاء "المخاتير"...؟؟؟

الأسد والكلب والحمار[8]

يُروى أن كلبًا رأى، يومًا، أسدًا يغطُّ في نومٍ عميقٍ، في ظلِّ إحدى شجرات غابته، فاغتنم الكلبُ الفرصة وأتى بحبل متين أوثق به أطراف الأسد، على غفلة منه. ولما استيقظ الأسد وجد نفسه غيرَ قادرٍ على الحركة، ومن المستحيل عليه أن يتحرر من رباطه من دون مساعدة أحدٍ. نظر حوله فلم يجد سوى حمارٍ يأكل عشبًا، على أكمة مجاورة. فناداه وقال له: أيها الحمار، إن حللتَ رباطي سأعطيك نصف هذه الغابة ملكًا لك تتصرف به كما تشاء. في البدء تردد الحمار خوفًا من أن يكون في قوله خدعة ما، ولكن وعد الأسد أغراه، فتقدم منه وفك عقدة الحبل، فاستعاد الأسد حريته. ثم قال للحمار: لقد غيرت رأيي فلن أعطيَكَ نصف الغابة كما وعدتك. فقال له الحمار: أنت ملك الغاب، والملك إذا وعدَ وفى. فقال له الأسد: بل

[8] قصة رمزية من الخيال. كتبتها في 2013/6/19.

سأُعطيك الغابة كلها لأنني سأرحل عنها، فالأرض التي يَربِطُ فيها كلبٌ أسداً ويحلُّ رباطه حمارٌ، تصبح مغادرتُها واجبةً على أصحاب النفوس الأبية.

المعزى والثلاثة العوران[8]

البستاني، عثمان، كردِيُّ العِرق تركيُّ اللسان، لجأ إلى إحدى البلدات الجبلية في لبنان في بدايات القرن العشرين، بعد أن نزح عن موطنه في بلاد الأناضول، كما فعل كثيرون، سواء من أبناء جلدته أم من الأرمن. لم يكن أحدٌ يعرف عن ماضيه شيئًا، منهم من قال كان مقاتلا ولذا فقد إحدى عينيه، ومنهم من قال: إنه قد ارتكب جريمة ما، مما جعله يلوذ بالفرار. ولكن يُجمِعُ كلُّ الذين عرفوه بأنه كان ذا أخلاق حميدة ولم يصدر عنه، ولو مرة واحدة، ما كان من شأنه أذية أحدٍ، معنويًا أو ماديًا.

عثمان هذا، احتضنه أحد وجهاء تلك البلدة وأسكنه في غرفة، خصّه بها وحدَه، في إحدى زوايا حديقة منزله، عاهدًا إليه الاعتناء بهذه الحديقة وبالحيوانات الداجنة التي

[8] عن قصة واقعية رواها لي أحد الأصدقاء. (أنهيت كتابتها في 26 /6/ 2013).

اقتناها ليقتات من نتاجها أفراد عائلته، وكان من جملة تلك الحيوانات، ثلاثُ أعنزٍ[8]، كانت ترعى مما كان ينبت من أعشاب "برية" حول المنزل وفي حديقته.

كان هذا المنزل يقوم على جُزءٍ من ربوة فسيحة، قبالة البلدة، أراضيها زراعية، ولكنّ معظمها كان بُورًا، وقليلٌ منها كان مغروساً ببعض أشجار اللوز والصنوبر والكرمة. ولم يكن فيها أي مصدر للري، فيما عدا أمطار الشتاء. وكان يتوزع بعض أبناء البلدة ملكية تلك الأراضي. ومن بين هذه الأراضي كرمٌ غيرُ بعيدٍ عن حديقة ذاك المنزل، فيه بضع شجيرات من الكرمة "البرية" ذات الأوراق المرة الطعم التي لا تصلح للأكل، حتى الحيوانات كانت تأنفها.

---

[8] في لسان العرب لابن منظور: "العَنْزُ: الـماعِزَةُ، وهي الأُنثى من الـمِعْزَى والأَوْعالِ والظِّباءِ، والـجمع أَعْنُزٌ وعُنُوزٌ وعِنازٌ." أما جمعها على عنزات فخطأ يقع فيه الكثيرون.

أكرم، مالك هذا الكرم، كان أيضاً من الوجهاء وكان يقطن في أعالي البلدة، وكان يشترك مع عثمان، البستاني، بعاهة العور.

كما كان يقطن في جوار عثمان في أسفل تلك الربوة مزارعٌ اسمه خليل، وعلى الرغم من الصعوبة التي كانت تعتري لسان عثمان في النطق بالعربية، فقد كانت صداقة حسن الجوار تربط بينه وبين خليل، أعورنا الثالث.

وفي أحد الأيام شكا أكرمُ، لمحكمة البلدة، أن مَعِيز عثمان قد دخلت إلى كرمه وأكلت شجيراته، طالباً الحكم على عثمان بتعويضه عن الأضرار التي لحقت بالكرم.

وبعد الاطلاع على ما ورد في نص الشكوى، وبما أنها خلت من البرهان الحسّي على الواقعة، إذ اقتصرت على رواية الشاكي بأنه رآها رأي العين، وبما أن القاضي لم يكن من أبناء البلدة فقد سأل كاتب المحكمة، وهو ابن البلدة، عمن يكون عثمان هذا، فأجابه بأنه بستانيٌّ ذلك

الوجيه القاطن قبالة البلدة. ولذا قرر القاضي الانتقال لإجراء الكشف الحسيّ قبل اتخاذ القرار العادل.

وفي الموعد المحدد انتقلت هيئة المحكمة إلى الكرم كما حضر كل من المدعي، أكرم، والمدعى عليه، عثمان، بالإضافة إلى شاهدٍ طلب عثمان من القاضي سماع شهادته لنفي واقعة "الاعتداء"، ولم يكن هذا الشاهد سوى خليلٍ، جار عثمان، وثالث العوران.

وبعد إجراء الكشف، انصرف القاضي إلى سماع أقوال كل من أكرم وعُثمان والشاهد، خليل. وبما أن عثمان لم يكن بإمكانه التعبير باللغة العربية فقد طلب القاضي من كاتب المحكمة المذكور، والذي كان وحده من بين الحاضرين يتقن التركية، بأن يتولى الترجمة. وقد كان في نفسِ هذا الكاتب شعورٌ بعدم المودة تُجاه أكرم، على نقيض ما كان يكنُّه من الاحترام والودِّ لرب عمل عثمان، ولم يكن القاضي على علمٍ بهذين الأمرين. وبعد أن رطن عثمان مطولا بالتركية، سأل القاضي المترجِمَ عما قال، وكان هذا

الأخير سريع البديهة، فجاد بما حلا له، قائلاً: سيدي القاضي، يقول عثمان، إنه وجاره خليل أعوران، فهما بالتالي يشكلان معًا رجلاً واحدًا معافىً سليم النظر، ويقيمان بالقرب من الكرم، ولم يريا الأعنز تدخله، فأنَّى لأعور واحد، تفصله عن الكرم تلك المسافة ما بين طرفي البلدة، أن يراهنَّ؟ هنا لم يتمالك القاضي، والحاضرون جميعًا، من كتم القهقهة من شدة الضحك.

عندئذٍ طلب أكرم، على مضضٍ، سحب الدعوى. وانتهت القضية صُلحًا من فطنة الكاتب.

الغراب الملك[8]

يُروى أن غرابًا حطَّ، يومًا، على غصن شجرة تحته غديرٌ، صفاءُ مائهِ جعل سطحَهُ كالمرآة. نظر الغراب تحته فلما رأى صورته في الماء، أخذ يتلفت يمينًا ويسارًا ويعود ليتأمل صورته، إلى أن قال في نفسه: إن هذا الجسد جديرٌ بأن يكون صاحبه، لا شيخ الغربان فقط، بل ملك الطيور. وبعد قليل من التفكير صفّق بجناحيه وعلا في الجو قليلا يبحث عن طيورٍ يأمل في أن تنضمَّ إلى مملكته، وكان، كلما رأى واحدًا منها، ينعقُ بالإهانات والشتائم بحقِّ بعض الطيور الكاسرة متهمًا إياها بالتخاذل في حماية الضعاف من أخواته، وبأن بعضها يُؤثِر خدمة أعدائها على خدمة بنات جنسه. ويزيد أيضًا بوعد تابعيه بالحسنى، وبوعيد أعدائه بالويل والثبور وعظائم الأمور.

---

[8] قصة رمزية من الخيال. كتبتها يوم 2013/6/27.

تبعه عدد من صغار وضعاف العصافير اللواتي تخاف بطش الكواسر أملاً في الحصول على الأمان. وكان كلما ازداد عدد أتباعه ازداد في نفسه جنون العظمة.

حدثته نفسه مرة بأنه ما دام حوله هذا العدد من الأتباع فسيكون بإمكانه التغلب على النسر، الذي تهابه الطيور جميعها، فيحقق بالتالي حُلمه في أن يصبح ملك الطيور، كبارها قبل صغارها. وصادف أن مرَّ يوماً، وبرفقته بعض حاشيته، بالقرب من عشِّ النسر وفيه الفراخ تنتظر أحد أبويها ليأتيها بالغذاء. فدار حول ذاك العشِّ دورتين لينقضَّ بعدهما ويمسك بأحد الفراخ ويلقيه من أعلى الشجرة. رآه النسر من بعيد فكسر جناحيه وانطلق كالسهم مسرعاً، وبعد أن صعق بضربات من جناحيه بعض مرافقي ذلك الملك الغراب، أمسكه بمخالبه وراح يمزق رأسه بمنقاره شرَّ تمزيق.

وقبل أن يفارق الحياة صرخ الغراب قائلا: "يا ويلتي هذه عاقبة من لا يعرف حده فيقف عنده".

"بُليق" والأصيلة[8]

يروى أن ثرياً كان يملك مزرعة كبيرة فيها بعض الحيوانات الأليفة والدَّواب، ومن بينها فرسٌ أصيلة وبغلٌ اسمه "بليق". وفي أحد الأيام جاء المزرعة لِصٌّ، وعلى غفلةٍ من صاحبها والعاملين فيها، امتطى الفرسَ خِلسة وانطلق بها مسرعاً، ولكنّ صاحب المزرعة رآه فور اعتلائه ظهر الفرس، فنبه أحد العاملين، واسمه "مبروك"، وركب هو أقرب جياده لعلَّه يلحق باللّصّ، أما مبروك فاعتلى ظهر "بليق" وانطلق به كالسهم، ولما قارب أن يلحق باللص ليمسك به، ناداه صاحب المزرعة صارخاً: "دعه يا مبروك، تفنى الأصيلة ولا بليق يردها".

فليفنَ، أيٌّ من البلاد العربية، ولا "يحرره "بليق" الأجنبي، كما "حرر" العراق من قبل.

---

[8] قصة رمزية من روايات الآباء. كتبتها يوم 2013/8/28.

وصية والد[8]

يروى أن تاجراً أحسَّ يوماً بقرب أجله فاستدعى ابنه الوحيد وقال له:

يا بني لكلِّ إنسانٍ أجلٌ محتومٌ، وإني أشعرُ أنْ قد قربت ساعتي، فإذا أردت أن تكون ناجحاً في عيشك من بعدي، فإنّي أوصيك في عملك بثلاث:

- لا تدعِ الشمس تراك.
- اجعلْ لك بيتاً في كل بلدٍ لك فيه عمل.
- الأمانة أهم أسس التجارة السليمة.

لم تمضِ أيامٌ حتى تُوفيَ الوالد وانتقلت ثروته إلى ابنه. ومع الأيام راحت الثروة تتناقص وشعر الابن بأنه سيقارب الإفلاس. وقد كان ابناً براً لا يخالف لأبيه أمراً. ولحرصه

[8] قصة رمزية من روايات الآباء. كتبتها يوم 2014/6/18.

على عدم مخالفة وصيته، لجأ إلى أحدِ أصدقاءِ والده شاكيًا حاله من جرائها، وكان يعلم جيداً عمق علاقة هذا الصديق ومعرفته بوالده.

فسأله الصديق أن يشرح له كيف يُطبِّق الوصية.

فقال الابن: لا أذهب إلى العمل إلا بعد غياب الشمس لأعود قبل شروقها، وقد ابتعت لي بيتًا في كل بلدٍ أزوره ولي فيه عملٌ، أما الأمانة فإني حريصٌ عليها بكلِّ أشكالها.

فقال له الصديق: يا بني، أنت ولدٌ بارٌ، وأبوك كان حكيمًا في وصيته، ولكن يبدو أن هناك خطأً ما في فهمك لها، فعندما قال لك والدك: "لا تدعِ الشمس تراك"، كان يريدك أن تذهب إلى عملك قبل شروق الشمس وألا تبرحه إلاّ بعد غروبها. ومن قوله: "اجعل لك بيتًا في كل بلدٍ تزُرْهُ"، لم يكن يريدك أن تشتريَ منزلاً فيه، بل أن يكون لك فيه صديقٌ يستقبلك في بيته كما لو كنت في بيتك. أما حفظك الأمانة، أهم صفات التاجر الأساسية، فلا شكَّ في أنك

ورثته عن أبيك، رحمه الله وحماك. فشكر الابن لصديق والده تفسيره ما قصد الأب في وصيته، وانصرف راضياً.

بعدها بدّل نهجه في العمل حسب مفهومه الجديد للوصية. فلم يطل عليه الزمن حتى استعاد ما كان خسره سابقًا، ونجح بعدها في أعماله نجاحًا جعله يفوق مكانة أبيه ويصبح من كبار التجار.

فأيقن أن أول شروطِ النجاح في العمل هو فهمُ أُسُسِه جيداً، وأن لا عيب في استشارة من كان به خبيراً.

حنين الحب[8]

رآها في إحدى الحدائق العامة في مونتريال على مقعدٍ قريب منه. لم يتمكن من منع عينيه عن إطالة النظر إليها والتدقيق في معالمها. أما هي فكانت كلما لاحت منها التفاتةٌ نحوه رأته يحدِّقُ بها والابتسامة لا تفارق شفتيه. لم يكن هو ليكترث إذا ما كانت نظراته الطويلة المتكررة قد تركت في نفسها شيئًا من التعجبِ أو حتى الإزعاج. ثم ما لبث أن ترك مقعده واقترب منها وحييّاها، ومن دون إيٍّ تردد خاطبها بالعربية، قائلاً: يتهيأ لي يا ابنتي أنني أعرفك فمن أين أنتِ؟

قالت: أنا من لبنان.

قال: وما اسمكِ؟

---

[8] عن قصة واقعية عرفت أشخاصها بنفسي. (أنهيت كتابتها في 2014/8/26).

قالت: ياسمينة.

قال: اسمٌ جميلٌ وعلى مسمى، وما اسم والدكِ؟

قالت: شادي.

قال: فإذًا أمُّكِ اسمها حنان وجدتكِ سعدى. وبعد أن أنبأها بعدة أسماءٍ لأقارب لها، أردفَ قائلاً: وأنتم من بلدةِ كذا ومنزلكم يطلُّ على رابية كثيرة الينابيع. بالله عليك أخبريني أما زالتْ أمك تحافظ على جمالها وحسنها الرائعين؟

فقالت متعجبةً: وهل حقًا تعرفُ والدَيَّ؟

قال: تمام المعرفة. ثمَّ أضاف بصوتٍ من يطلبُ حسنة قائلاً: هلّ لي أن أضمكِ بين ذراعيَّ وأعطِّر أنفي برائحة افتقدتها منذ أكثر من خمسين سنة؟

لم تتأخر ياسمينة لحظة واحدة عن استجابة طلبه فاقتربت منه من دون أن يخطر لها ببالٍ أنها تقترب من رجلٍ غريبٍ، فأخذها بين ذراعيه وضمها بحنان لم تشعر بمثله

منذ أمدٍ بعيد. فقالت له: لم أفهم بعدُ كيف عرفتني؟ ومن أين لكَ معرفةُ والدَيَّ؟ وقد سألتني أيضاً عن جمالِ والدتي فهل كنتَ تلاحقها أيامَ الشباب؟

فأخذ نفساً عميقًا من بين خصلاتِ شعرها، مستعيداً ذكرياتٍ مضى عليها عقودٌ من الزمن، وخوفًا منه على شعورها قرر ألاّ يبوح لها بذلك الحب القديم الذي ربطه يوماً بوالدتها، ثم قال: لا يا بنيتي لم أكن بحاجة مطلقًا لأن أسعى وراء حسنِ وجمالِ والدتكِ كما كان يفعل الشباب في أيامنا تلك، إذ قد جمعتنا سوية طفولةٌ بريئةٌ ثم صداقةٌ أيام الشباب، ولكنني لم أرها إلاّ مرة واحدة بعد أن تزوجت المرحوم والدَكِ.

فرفعت رأسها عن صدره وتوجهت إليه سائلة بتعجّب: تقول إنك لم ترها منذ تلك المدة الطويلة من الزمن، فكيفَ عرفتَ أن والدي قد تُوفيَ؟

قال: لم انقطع، يا بنيتي عن تنسُّمِ أخباركم، وأعلم أيضًا أن لكِ شقيقةً اسمها رنا. أخبريني عن ملامحها هل هي شبيهة بكِ أم بوالدتكِ أم بمن؟

لم تجبه على سؤاله، بل أعادت رأسها إلى صدره وراحت تمرِّغُ به وجنتيها والدموع تملأ مقلتيها ثم قالت، بصوتٍ تُقطِّعهُ غصّة من حزنٍ وسرورٍ معًا: هل تسمح لي بأن أعتبرك والدًا لي في غربتي هذه وأن أناديك بيا "أبي"؟

فأجابها على الفور قائلاً: هذا ليس من دواعي سروري فحسب، بل هو ما كنت أتمناه منذ تلك اللحظة التي رأيتكِ فيها على مقعدكِ هذا.

فازدادت شعورًا بذلك الحنان الذي غاب عنها منذ وفاة والدها، وقالت: الآن فهمت يا أبتِ لماذا لم يعترِني أيُّ إحساسٍ بأنني أقترب من رجلٍ غريب، عندما اقتربتَ منيِّ ثم سألتني أن تضمني بين ذراعيك. فعوضًا عن أن أبتعدَ عنك وجِلةً رأيتُني أرتمي على صدرك، حتى من دون أن أعرف اسمك. وأرجوك لا أريد أن أعرفه الآن كي لا

ينقطع وصالي بروحِ والدي. ولكن بالله عليك قلْ لي هل كنت متأكداً ممن أكونُ كي تقترب مني وتكلمني وبالعربية أيضاً؟

قال: لا يا ابنتي لم أكن على تمام اليقين من شخصكِ، ولكن إحساساً تملكني بأنني أمام شابةٍ ليست غريبةً عني، بل شعرتُ ايضاً أنَّ هناك ما يربطني بك، ما هو؟ لم أكن أعلم.

ثم قالت: وما الذي رأيتَه فيَّ ليثيرَ فيكَ هذين الإحساس والشعور؟

قال: ياسمينة، يا ابنتي، يقولون بأن البنت غالباً ما تشبه أمَّها، ولكن اعذريني إن قلت إنّي لم أرَ في وجهكِ حسنَ وجهِ أمِّك الذي لم أنسْه يوماً، ولكني رأيتُ فيه بعضَ الملامح التي أعادت إلى مخيلتي صورة وجهها الصبيح. وعلى الرغم من هذه الثياب التي ترتدينها، ذات الطابع الأميركي الذي يخبّئُ معالم القدِّ، ومن تلك الأناقة الباريسية التي كانت تميز ثياب والدتِكِ وتظهر جمال قدِّها، فقد رأيتُ

في قدِّكِ بعضاً من جمال قدِّها. أما الإحساس والشعور بذلك التيار العاطفي فلا تفسير له عندي. وهل لديك أنتِ أيُّ تفسيرٍ لما يُسمَّى بالحبِّ من أول نظرة؟

قالت: سألت وبحثت ولم أجد جواباً.

ثم قال: أيمكننا أن نعود إلى المقعد؟ فهاتان الساقان اللتان أضعفتهما سنوات العمرِ لم يعد باستطاعتهما الوقوف طويلاً، وقد زادتهما اليوم تعباً، رياضة المشي التي اعتدت أن أمارسها في حديقتي الجميلة هذه، في أيام الصيفِ غير الماطرة، لأسيرَ على ممراتها وخلالَ أشجارها مرة أو مرتين ثم أركن إلى هذا المقعد لأريح النفس والجسد، وأتنشق الهواء النقي وأمتع ناظري بهذه الخضرة الجميلة وببراءة هؤلاء الأطفال يلعبون تحت أنظار ورقابة والدِيهِم.

قالت: بكلِّ تأكيد وسرور، ولكن على أن أبقى ملتصقة بك ورأسي على صدركَ وكتفيَّ تحت جناحك.

مرَّت ساعة صمتٍ وهما على ما رغبت، ولكنَّ كلاً منهما كان يسبحُ في بحورِ مخيلته. هو، يستعرض شريطَ صورِ تلك الأيام الغابرة التي جمعته بوالدتها وتلك الظروف التي حالت دون زواجهما، وتتضارب في خَلَدِه أسئلةٌ كثيرة، فماذا لو تمَّ ذاك الزواج؟ فهل كان لياسمينة هذه أن تكون ابنته هو؟ أم ماذا؟ وهل كان سيُقدَّرُ له أن يعيشَ بسعادة تزيدُ عن تلك التي ظلّلتْ عيشته حتى اليوم؟ وغيرُها من الأسئلة التي ليس لها أجوبة عنده. ويعود إلى الواقع، فهذا المجهول سيبقى له مجهولاً وخارجاً عن حدودِ عقله وتفكيره. ويعيدُ الأمانَ والهدوءَ إلى نفسه ذلك القولُ الذي طالما أراحه في كلِّ مرَّةٍ يتذكر فيها أمراً مضى وكاد أن يتحقق له في حينه، في حياته العملية ثم تعثَّرَ لسببٍ ما، فيردِّد قائلاً: حقاً صدق من قال: "لو أُوتِيتُمُ الغيبَ لاخْتَرْتُمُ الواقعَ".

أما هي فغاصت في لججِ بحرٍ من أسئلة لم تجد لأيٍّ منها جوابا عندها: فمن هو هذا الرجل؟ وما هي حقيقة علاقته بوالدتها؟ هل كان يحبها؟ وهل كانت هي تبادله الحبَّ؟ ولِمَ

لم يتزوجا؟ ففي تلك الأيام لم يكن المجتمع يتقبلُ إمكان الصداقة بين رجل وامرأة وخصوصاً إذا كانا في عمر الشباب. ولو تزوجا وكان هو أباها فهل كان لها أن تتمتع بدفئه وحنانه لسنوات أكثرَ عدداً مما منحها إياه عمرُ والدِها؟ لقد تُوفِّيَ والدُها وهي لم تكن بعدُ قد بلغت الحُلم، وهذا الرجل لم يزل على قيد الحياة وقد قاربت هي على نهاية العقد الثالث من العمر. ويا تُرى كم له من العمر الآن؟ و...

فتوقظهما من أحلامهما فتاةٌ صغيرةٌ جاءت تبحثُ عن طابتها بالقرب منهما، فتهبّ لمساعدتها. وبعدما طمأنتها استعادةُ تلك الطفلة طابتَها، عادت هي إلى المقعد. ثم سألته قائلةً: أمتزوجٌ أنتَ؟

قال: أجل.

قالت: وهل أنتَ سعيدٌ بزواجك؟

قال: كلُّ السعادة. فقد رزقنيَ الله زوجًا صالحةً وأولادًا وأحفادًا هم أغلى عندي من كنوز الدنيا وما فيها.

قالت: وأين هي زوجك الآن؟

قال: هناك في المنزل عند طرف الحديقة ذاك، تنتظر عودتي. وسنكون أنا وهي سعيدين إذا ما زُرْتِنا.

قالت: أمن الممكن أن تتقبل هي زيارتي بصدرٍ رحبٍ؟

قال: ولمَ لا؟ أنا لا أنكر يا بنيتي أنَّ عاداتِ وتقاليدَ ومفاهيمَ مجتمعنا كانت في تلك الأيام تختلف عما هي عليه اليوم. ولكننا، أنا وزوجتي، قد نشأ كلٌّ منا في بيتٍ يسُودُه العقلُ الراجحُ والفكرُ المنفتح النّيّرُ، وفي جوٍّ من الحرية والتعلقِ بالقيم الإنسانية والدينية الصحيحة والمساواةِ بين الجميع، كما تعلمنا ألا يميِّزُ بين إنسانٍ وآخر لونٌ، أو عِرقٌ أو دينٌ أو جنسٌ، وأنَّ لكلِّ أمرٍ حدودَه وأنَّ "ما زاد عن حده انقلب إلى ضده". وقد أُشْرِبنا مع الحليب أن ننبذ من تلك العادات ما هو موروثٌ من جهلٍ، وأن نتمسك بتلك التي تنبع من

القيم الإنسانية والدينية الحقيقية. ثمَّ إن كلانا يعرف ماضيَ الآخر ويحترمُه. كما أن ليس فيهما ما يُخجل. وعندما تسود الثقةُ التامةُ العلاقةَ بين شخصين، سواءٌ كانا شريكين في الحياة أم في العمل، أم صديقين... فعندئذٍ لن يُحْرَجَ أيٌّ منهما في أن يقدِّمَ لشريكه صديقًا قديمًا له من الجنس الآخر.

فقالت: حسنا، لقد زرعت، بكلامك هذا، في قلبي الشوق للقاء تلك السيدة العظيمة التي اضفت هذه السعادة على حياتك يا "والدي".

ثم فتحت محفظتها واخرجت منها وريقة وقلما وخطَّت رقم هاتفها. وبعدما ناولته إياها، سألته عن رقم هاتفه قائلة: أريد الرقم فقط ومن دون الاسم لأنني سأحفظه تحت اسم: "والدي"...

وبعدما انتهت من تدوين الرقم الذي زودها به قال لها: ولكن يا بنيتي هل لي أن أسألكِ ماذا تفعلين هنا؟

قالت: إن كنت تقصدُ وجودي في هذه الحديقة الغنَّاء، فقد كنت في زيارة لإحدى الصديقات في منزلها هناك على طرف الحديقة المقابل، وقد رغبت في أن أمضي بضع دقائق على هذا المقعد لأتمتع بجمال اشجارها وأزهارها، ولأتنشق من نقاء أنسامها. أما إذا عنيت وجودي في هذا البلد الجميل، فأنا هنا بقصد الدراسة إذ بعدما تخرجت في الجامعة في بلدنا الحبيب قررت أن أُتمَّ دراستي العليا في الطب في جامعة مونتريال.

ثم نظرت إلى ساعتها فانتصبت واقفة سائلةً الإذن بالانصراف لارتباطها بموعد حان وقته. فتواعدا على لقاء قريب، وطبعت هي على وجنتيه قبلتي ابنةٍ محبة وبادلها هو بقبلة على جبينها فيها الكثير من حنان الأبوة، وانصرفت وعيناه تلاحقان خطواتها حتى توارت بالأشجار، تاركة في ثناياهُ شعورا لم يجد له تفسيراً سوى أنه من حنينٍ لحبٍ قديمٍ غاب ومضى كما تمضي أيامُ العمرِ مسرعةً ومن دون توانٍ.

قتله بخله[8]

روى لي صديقي سامي بعضاً من حكاياتِ أبي سهلٍ، قال:

في أوائل ستينيّات القرن الماضي استأجرنا شقة في أحد مباني منطقة المصيطبة في بيروت، ولم تكن بعد قد اكتظت بالسكان كما هي عليه في أيامنا هذه، وكنت يومها لم أزل أعيش مع والديَّ وإخوتي على عادتنا الشرقية بألَّا يترك أحدنا منزل أبويه إلاّ إلى منزله الزوجيّ، فيما عدا من اضطرَّ للعمل في خارج البلاد، أو باستثناء بعض الحالات الشاذة.

وبعد مضيٍّ ما يزيد عن ثلاث سنوات جاءنا أبو سهلٍ للمرَّة الأولى ليعلمنا أنَّ المبنى الذي نقطن فيه قد أصبحت ملكيته تجري على اسمه. وكان يرتدي بذلة داكنة اللون أكل الدهر عليها وشرب ويحمل بيده اليسرى محفظة منتفخة ومحشوةً بالأوراقِ والمستندات وما لا يعلمه إلاّ

[8] عن قصة واقعية عرفت أشخاصها بنفسي. (أنهيت كتابتها في 2014/9/24)

الله، ويكاد كتفه ينحني من وزنها، وكانت السنون قد جعلتها متعددة الألوان.

يومها عرفت أن يوسف، صاحب المبنى الذي أستأجرنا منه سكننا، كان قد استدان من أبي سهلٍ هذا مبلغًا لا يستهان به من المال كي يتمكن من إتمام أعمال البناء على أرضٍ ورثها عن والده، وأن أبا سهلٍ قد اشترط أن تُسجَّلَ قيمة الدين مضاعفة على صحيفة العقار العينية، وأنّ يوسفَ قبل الشرط مرغماً لأن الاستدانة من المصارف في تلك الأيام كانت صعبة جداً، وبالتحديد عليه وعلى أمثاله، إذ كان يعمل "بلاَّطًا" لقاء أجرٍ يوميٍّ. وعلى ما أذكر أن قيمة الدين المسجلة كانت بنحو مائة وعشرين ألف ليرة لبنانية. يومها كانت القوة الشرائية لليرة جيدة جداً وكنا لم نزل نتعامل بالقروش، إذ كانت الخمسة قروشٍ مثلاً تكفي للانتقال ب"تراموايٍ" بيروت بين طرفي المدينة، كما أن بدل إيجار شقتنا السنوي كان يساوي، على ما أذكر، ألفًا وخمسمائة ليرة، وقِسْ على ذلك. ولما عجزَ يوسفُ عن تسديد قيمة هذا الدين لم يرحمْهُ أبو سهلٍ، سواءً باعتماد

القيمة الحقيقية أم حتى بالاكتفاء بزيادتها بنسبة خمسين في المائة، كما لم يقبل بتخفيض قيمة الفوائد المتراكمة، المرتفعة النسبة جدًّا، أو بمبدأ التسديد على دفعات شهرية أو سنوية. فكانت نتيجة النزاع أمام القضاء والإجراآت القانونية أن أصبح المبنى على ملكية أبي سهلٍ مقابل قيمة الدين وملحقاته، ولم يبقَ ليوسف أي مبلغ نقدي أو حتى حقُّ السكنى في المبنى.

ومع تلك الزيارة بدأت حكايات أبي سهلٍ مع السكان.

هذه الحكايات كانت لنا برهانًا إضافيًا وقاطعًا على ما يفعله الربا في النفوس وخصوصًا إذا ترافق مع البخل.

وقد علمت أيضًا أن أبا سهلٍ هذا من أبناء مدينة حِمص وكان يعمل فيها محاميًا، ولكنه ترك هذه المهنة الشريفة ليتحول إلى الربا الذي وجد فيه الكسب الوفير والسريع، وما يتلاءم مع خصال نفسه الشحيحة. وقد رأينا منه أموراً لو علم بها الجاحظ لكان أفردَ لها، في كتابه "البخلاء"،

فصلاً خاصاً بأبي سهلٍ وبخله. وإليك يا صديقي بعضاً مما أبقته الأيام في الذاكرة من أخباره:

حكايته مع المالك السابق يوسف وعائلته

في الشهر التالي لتسلمه المبنى كان أولَ بابٍ طرقه أبو سهل، لتحصيل بدل الإيجار، بابُ يوسف، المالك المنزوعة ملكيته، ومن سوء حظه أن فتحت الباب والدة يوسف، وبدل أن تدعوه إلى الدخول على عادة الضيافة فقد خلعت حذاءها وراحت تبصق بوجهه وتكيل له الشتائم والضربات أينما اتفق لها، من رأسه إلى أسفل صدره وظهره، وهو يصيح قائلاً: "أنا جايي بدِّي الآجار بسّ ما بدِّي شي غيرو"، إلى أن خلصه أحد الجيران من بين يديها، وهو لم ينقطع عن المطالبة ببدل الإجار، بنغمة التسول. وعلى الرغم من هذا فقد أبت خسَّةُ نفسه إلاّ أن تضعه في وضعٍ مشابهٍ مرّاتٍ متتالية مع المرأة عينها.

حكايته مع جارنا، جورج

طرق أبو سهلٍ باب جارنا جورج مرة فدعاه هذا الأخير إلى الدخول، وبعدما اطمأنّ إلى أن بدل الإجار المستحق قد أصبح في جيبه، قال لجورج: "من شان الله اعطيني ربع ليرة أجرة السرفيس". أخرج جورج من جيبه قطعة معدنية من فئة الخمسة والعشرين قرشًا ومدَّ يده ليناوله إياها، ولما أمسك بها أبو سهلٍ لم يتركها جورج، بل بقي متمسِّكًا بها جيدًا فراح كلٌّ منهما يشدُّ لجهته، وأبو سهلٍ يردد، على لحن المتسولين، "من شان الله اعطيني اياها". وبعد دقائق من الإذلال تركها له جورج فاختطفها أبو سهلٍ ووضعها مسرعًا في جيبه، فرِحًا تقوله قد حصل على كنزٍ لا يقدَّر بثمن.

كما أخبرني جورج، وقد كان تاجرًا مرموقًا، عن تصرفٍ غبيٍّ لأبي سهل، قال: جاءني يومًا لقبض بدل إجار شقتي عن الشهر الثاني من انتقال ملكية المبنى على اسمه. وعندما أحضرت له المبلغ المطلوب طلب الاطلاع على وصل الشهر الفائت، فرغبت في معرفة بعض ما تنطوي عليه نفسُه، فقلت له: لقد أضعته. فانتفض قائلاً: لا لم

تُضعِه، بل أنت لم تسدد البدل وأنا متأكدٌ من ذلك ولذا يكون المتوجب لي بذمتك بدل إيجار شهرين. فقلت له: راجع سجلّ حساباتك فستجد أن بدل الشهر الفائت مسددٌ. فقال: السجل ليس بحوزتي الآن وأنا أذكر جيداً أنك رجوتني أن أمهلك لتسدد بدل الشهرين معاً. ولم يردعه ضميره الميت من أن يُقسِمَ الأيمان المعظمة. وبعد جدالٍ عقيمٍ أخرجتُ الوصل من جيبي وأطلعته عليه من دون أن أسمح ليده أن تمتدَّ لتلمسه، ورحت أنعته بما أعانتني عليه ذاكرتي من صفات الدناءة والخسة وقلة الضمير وغيرها... ومع كل هذا لم ينطق بكلمةِ اعتذارٍ واحدة كما لم يتغيرْ لون وجهه أو يغضّ الطرفَ حياءً، وكأنَّ ما حصل لا علاقة له به، حتى قبض قيمة بدل الشهر المستحق وانصرف.

حكايته مع سامي

ويتابع سامي قائلاً: أما قصته معي، ففي الصباح الباكر من أحد أيام الصيف، حيث كنت وحيداً في المنزل، وسائر

أفراد الأسرة في الجبل، أيقظني صوت جرس الباب الخارجي المتكرر، فنهضتُ مذعوراً، والساعة تشير إلى ما قبل الموعد المعتاد الذي استيقظ فيه في أيام العمل، بما يزيد عن الساعة والنصف، وفتحت الباب وعيناي ما زال يغشاهما النوم، وإذا بأبي سهلٍ يقول، متسولاً: "بِدّيِ الآجار". فلم أتمالك نفسي عن أن أطرده شرّ طردة وبكلامٍ قاسٍ لم أُسمِعْهُ أحداً من قبلُ، ومن دون أي اعتبارٍ لعمره الذي كانت تزيد سنواته عن ضعفي ما كان لي من العمر. ثم قلت له بنبرة الغضب والأمر: إذا قرعت بابنا مرة أخرى فسأكسر رِجلك، وعندما يستحقُّ لك بذمتنا بدل الإجار تأتيني إلى مكتبي الذي تعرف مكانه جيداً، وإلاّ فأمامك القضاء تطالبني بواسطته.

وكنت قد اكتشفت أن الرجوع إلى القضاء نقطة ضعفه خوفاً من كلفة قد يتحملها من جراء ذلك ولخبرته السابقة في أثناء ممارسته مهنة المحاماة. فما كان منه بعدها إلاّ أن استدار ليذهب مسرعاً وهو يقول: "بأمرك وكما تريد وبالله عليك لا تغضب مني".

حكايته مع خالد

ثم زاد سامي قائلاً: اسمع يا صديقي قصته هذه: كان في الطابق الأرضي من المبنى ثلاثة محلات تجارية غير مؤجرة، وقد كان من بين العمال الذين عملوا في إقامة البناء عاملٌ اسمه خالد لم ينقطع عن التردد إلى منزل المالك السابق في الأوقات التي لم يكن يعمل فيها، وأصبح معظم السكان يعطفون عليه ويثقون به ويكلفونه ببعض الأعمال ويكرمونه. وكان خالدٌ هذا سوريًا مأواه في ورش البناء التي يعمل فيها، فارتأى بعضنا أن يُسمحَ له المبيت في أحد تلك المحلات ووافق أبو سهلٍ على ذلك، مُظهرًا الاستجابة مرغمًا. وقد تبين لنا فيما بعد أنّ سبب قبوله لم يكن كرمًا منه بل كان يُمنِّي النفس في أن يقوم خالدٌ بتنظيف وتهيئة ذاك المحل فيتمكن أبو سهلٍ من أن يبيت فيه هو أيضًا في الليالي التي يُفرضُ عليه فيها البقاءُ في بيروت فتزاح عن كاهله كلفة المبيت في أحد فنادقها ولو كانت من أدنى الدرجات.

أما المضحك في هذه القصة فهو أن أبا سهلٍ أتى خالداً يوماً، ووجهُهُ يطفح بشراً، وناداه من بعيد، بصوتٍ من يريد إسماع كلامه لكلِّ من في الجوار، قائلاً: يا خالد لقد جئتك بهدية. لم يصدّق خالد ما سمعه، ولكنه انتظر إلى أن حطَّ أبو سهلٍ رحاله أمام باب المحلِّ ثم فتح محفظة أوراقه الشهيرة وأخرج منها كيساً ورقيًّا ولما فتحه بانت تلك الهدية القيمة، فإذا هي عبارة عن فطيرتي سبانخ على شكل مثلث صغير وقرصين من الكبَّة المقلية، وقد كان ثمن هذه الهدية بنحو نصف الليرة الواحدة. وعلى الرغم من ذلك فقد أبى أبو سهلٍ إلاَّ أن يطبق مع خالدٍ مبدأ المشاركة فأعطاه نصف ما سماه "هدية" واحتفظ لنفسه بالباقي.

ثم قال سامي: اسمع يا صديقي كيف قتله بخله

لقد كان أبو سهلٍ من المرابين المعروفين في حِمص، وكان من جملة زبائنه عددٌ من أصحاب وسائقي الشاحنات والصهاريج الذين كانوا يعملون على خطِّ بيروت – حِمص. وكان إذا أراد الانتقال بين هاتين المدينتين بحث

عن أيٍّ من هؤلاء لينتقل معه مجانًا فترتاح نفسه، أما راحة جسده فلم تكن عنده من الأولويات، لأن القرشَ هو المهم. كما أنه لم يهتمّ يومًا بساعة الرحلة سواء كانت نهارًا أم ليلاً، شتاءً أم صيفًا.

وبينما كان عائدًا مرة إلى حِمص أوقف السائق شاحنته في إحدى القرى، أمام فندقٍ يتقاضى مبلغ ليرتين سوريتين مقابل المبيت لليلة الواحدة، وقال لأبي سهلٍ: إنَّ الوقت ليلٌ كما ترى ونحن في أقسى ليالي الشتاء وقد بدأ التعب والنعاس ينهكان حواسِّي وجسدي ولذا أرى أن نبيت ليلتنا في هذا الفندق ثم نتابع سيرنا في وضح النهار. وعلى الرغم من أن أبا سهلٍ على علمٍ بأسعار ذلك الفندق، وأن الليرتين السوريتين كانتا تعادلان أقل من ليرة ونصف الليرة اللبنانية فقد ألحَّ على السائقِ، بلهجة التسول، لمتابعة السير، ولكنّ هذا الأخير أصرَّ على المبيت. عندئذٍ قال له أبو سهلٍ: إذًا اذهب أنت وحدك وسأنتظر عودتك هنا في الشاحنة. فشرح له السائق محاذير ذلك على جسده خصوصًا أنه قد جاوز السبعين، إلاّ أنه لم يأبه لكل هذا،

فغادره السائقُ ليمضي ليلته في الفندق. وفي الصباح عاد السائق إلى الشاحنة ليجدَ أبا سهلٍ قد تحولَ جثة هامدة.

وهكذا، يا صديقي، مات أبو سهلٍ كي لا يُنفقَ قروشًا معدوداتٍ من تلك الأموال الطائلة التي أمضى عمره يجمعها لاهثًا، وتركها في هذه الدنيا ورحل خاليَ الوفاض ومن دون أن يأخذ معه قرشًا واحدًا منها.

العِنادُ لا علاجَ له[8]

في الأساطير، أنه كان من عادات الملوك أن يتفقدوا رعاياهم متنكرين بأزياء تخفي شخصياتهم. وكانوا يطلقون على هذا التنكر عبارة: "التدروُش" فيقولون: "تدروش الملك"، أي تزيا بزيٍّ "الدراويش".

ويُروى أن أحد الملوك "تدروش" يومًا، وخرج من قصره، مصطحبا وزيره، بغية القيام بجولة تفقدية في أنحاء مملكته. وبينما هما سائران لفت نظرهما فلاحٌ يحرث

[8] قصة رمزية من روايات الآباء. كتبتها يوم 2014/11/10.

أرضا مُمسكا بمحراثٍ يجرُّه ثوران يقطعان عرض الحقل ذهابًا وايابًا، وكان الفلاح مع كل ذهاب يصدح بغناء "موَّالٍ" دالٍّ على السعادة في العيش.

فأراد الملك أن يعرف سِرَّ سعادة هذا الفلاح. فقال للوزير: إن الفلاحين غالبا ما يعانون من شظف العيش فعلى الرغم من ذلك أرى هذا الفلاح سعيدا، فإني أرغب في أن أعرف سبب هذه السعادة.

فقال الوزير: فلنذهب إليه، ولكن إذا سمح مولاي أن اتولى الأمر فلديَّ حيلة قد توصلنا الى حقيقته.

فقال الملك: لك ما شئت.

فتوجها الى الفلاح وبعد إلقاء التحية قال له الوزير: نحن عابرا سبيل ذاهبان الى قرية "كذا" وهي كما تعلم بعيدة قليلا وقد قارب النهار على نهايته، فإذا كان بالإمكان ان نبيت عندك ليلتنا هذه فنكون لك من الشاكرين.

فأجاب الفلاح: على الرحب والسعة وإن لم يسعكما البيت ففي القلب ننزلكما.

توقف الفلاح عن العمل وحلَّ وثاق الثورين ووضع النِّير والسِّكة ولوازم الحراثة على ظهر حماره ودعاهما الى المسير.

ولما وصلوا الى البيت نادى الفلاح على زوجته فجاءته مرحبة به وبمن معه والابتسامة تعلو شفتيها، وعبارات الدعاء له لا تفارق لسانها. ثم راحت تعينه على إعادة عدة الحراثة الى مكانها، وإدخال الثورين والحمار الى غرفة كأنها اسطبلٌ صغيرٌ، كانت قد حضَّرتْ فيها مسبقًا عليق المساء لهذه الحيوانات، الى جانب كمية من الماء كافية لإرواء عطشها.

ثم أحضرت الماء والصابون والفوط النظيفة للتنشيف. وبعدما فرغ الزوج وضيفاه من غسل أيديهم ووجوههم وأرجلهم دعتهم لتناول العشاء مما قسم من الطبخ ومن

المؤونة حسب مقتضيات فصول السنة وقدرة صاحب البيت.

بات الضيفان ليلتهما وفي الصباح ودَّعا صاحب البيت شاكرين له ولزوجته حسن الضيافة، وانطلقا لإكمال جولتهما. ولكن ما رأياه من سلوك الفلاح وزوجته لم يفارق مخيلة الملك البتة.

ولما أنهيا جولتهما وعادا إلى القصر، أصدر الملك أمره بأن يُبعثَ في طلب ذلك الفلاح وزوجته. وما أن بلغ الفلاحَ أمرُ الملكِ تملَّكه الخوف والتعجب. ولكنه لم يرَ بدا من الطاعة. فانطلق في الحال إلى القصر وبصحبته زوجته تنفيذا للأمر. ولما وصلاه، مثلَ الفلاح بين يدي الملك وحياه كما تفرض عادات تلك الأيام على الرعية في تحية ملوكها.

فقال له الملك: في يوم "كذا" جاءك رجلان وقالا إنهما عابرا سبيل واستضفتهما في بيتك ليلة واحدة انطلقا بعدها

في حال سبيلهما. هل عرفت من هما ذينك الرجلين؟ أجاب الفلاح بالنفي.

قال الملك: بل هما أنا ووزيري هذا الذي على يميني.

قال الفلاح: فهل أمرت يا مولاي، بإحضاري لمعاقبتي على خطأٍ ارتكبته؟

قال الملك: بل على العكس من ذلك، إذ لم نرَ منك إلاّ التكريم وحسن الضيافة. ولكن لي طلبٌ عندك.

قال الفلاح: رغباتك أوامر يا مولاي، وأنا طوع أمرك.

فقال الملك: إنّ ما رأيناه من تصرف زوجتك جعلنا، أنا ووزيري، على قناعة تامة بأنّها السبب في عيشتك الراضية على الرغم من أنكما لم ترزقا بالذرية، وكما يقول الحكماء، "لن تكون سعيداً إلاّ إذا كنت راضياً بما أنت عليه". ولذا سأطلب منك أن أبادلك زوجتك بثلاثِ حسانٍ يكنَّ لك جواريًا يأتمرنَ بأمركَ ويُعينُّنَك في عملكَ وتفعلُ بهنَّ ما تشاء.

لم يتمكن الفلاح من الرفض لأنه مُوقِنٌ أنَّ من عادات ملوك تلك الأيام أنَّ من يرفضُ لهم أمراً عقابه الموت.

غادر الفلاح قصر الملك، وبصحبته بديلاتُ زوجته، قاصداً قريته وبيته، وفي قلبه غصَّةٌ على خسارته زوجته. ولكنه أذعن لقدره ورضي به.

وبعد مُضيِّ عامٍ أو يزيد، مدّةٌ لم تكن كفيلةً في أن يتخلَّص الملك فيها من التفكير في ذلك الأمر، فأراد أن يعرف ما آلت إليه حالُ ذلك الفلاح المسكين. فتدروش ثانية هو ووزيره وانطلقا قاصدَين قريته. ولما وصلاها وأصبحا في مكان يرونه منه ولا يراهما، وجداه يحرثُ الحقل نفسه، ولكنَّه بدا لهما أسعد حالاً مما كان عليه في المرة الأولى. فهو اليوم يصدح ب"موَّالٍ" مليءٍ بالفرح، عند كل ذهابٍ وإيابٍ بالحراثة، بينما كان في السابق يكتفي بذلك ذهاباً فقط.

وبعد مراقبته بعضاً من الوقت، اقتربا منه. ولما تحقق هو من شخصيهما خفَّ مسرعاً لملاقاتهما بالترحاب والانحناء

احتراماً وإجلالاً لمقاميهما. ودعاهما إلى منزله المتواضع بعدما أوقف عمله كما في المرة السابقة.

وعند وصولهم إلى باحة المنزل هبّت اثنتان من تلك الجواري للقائهم، وتناوبتا على ما كانت تقوم به زوجته كأنهما تقمصتا سلوكها، والملك يكاد لا يصدقُ ما يشاهد، ولكنّه آثر الصمت إلى أن فرغوا من تناول العشاء، وتركت المرأتان الرجالَ الثلاثة في مجلسهم. فتوجه الملك إلى الفلاح قائلاً: أيها الرجل الطيب، إني أراك أسعد حالاً من ذي قبل، وهذا مما يسرني ويضعُ عنّي وِزرَ إرغامي إيَّاك التخلي عن زوجك، ولكن ما هو السرُّ في هذا؟ وهل نسيت زوجتك بهذه السرعة والسهولة؟ ثم أين ثالثة الجواري؟ أريدك أن تجيبني بكل صدقٍ وصراحة.

فقال الفلاح: معاذ الله، يا مولايَ، أن أنسى تلك الزوجة الصالحة المخلصة التي عاشت معي بضعَ سنين على الحلوة والمرة راضية بما قسم الله لنا، وحفظتني في شرفي ومالي. ولأن الله تعالى لم يرزقنا من الذرية ولو بولد واحد

يؤنس وحدتنا، أذعنت لأمرك راضيًا وآملاً لها عيشةً في قصرك العامر، أفضل منها في هذا البيت المتواضع. أما عن باقي السؤال فأرجو أولاً يا مولاي أن تمنحني العفو وأن تسامحني عن أي خطأٍ أو خطيئةٍ أكون قد وقعت فيهما.

فقال الملك: لكَ ما طلبت إن صَدقتني الخبر.

فقال: بعدما تركنا قصرك العامر، يا مولاي، أنا والجواري الثلاث، توقفنا على جسرٍ فوق نهر "كذا"، وهو كما تعلم في منتصف طريق العودة إلى قريتي، لأخذ قسطٍ من الراحة يُعينُنا على تحمل عناء ما تبقى لنا من المسير لبلوغ غايتنا. وهناك، وقبل إكمال طريقنا، سألت كلاً من الجواري أن تصدقني القول عن سبب تخليك عنها. فقالت إحداهن بأنها ابتليت بعادة السرقة. وقالت الثانية بأنها لم تكن مخلصة لك في نفسها لحبِّها للرجال. أما ثالثتهنَّ فقالت بأنها عنيدة لا تتراجع عن رأيها، حتى لو ثبت لها خطأُه. عندئذٍ، يا مولاي، قلت للأولى: أنتِ ستتولين الأمور المالية كلها،

وللثانية: أنت بإمكانك معاشرة من تريدين شرط أن يجري ذلك في منزلنا وبمعرفتنا. أما الثالثة، فذكّرتني بقصة "بالمِقصّ". إذ يروى أن رجلاً وزوجته كانا يسيران بمحاذاة حقلٍ حديثِ الحصْدِ، فقالت المرأة: كم قاسى أولئك الذين قطعوا، بالمِقصِّ، سنابل هذا الحقل! فقال لها زوجها: الحقول تُحصَّد بالمِنجل لا بالمِقصّ. فقالت: لا، فانظر كيف قطعت السنابل بالتساوي. وعبثًا حاول الرجل إقناع زوجته بأن آلة الحصاد هي المِنجل لا المِقص، وطال الجدال بينهما وهي تصرُّ قائلة: "بالمقصِّ". وكانا في مسيرهما قد بلغا نهراً عظيمًا وهي لم تزل على موقفها، فما كان من زوجها إلّا أن قذف بها إلى النهر، وبينما هي تحاول النجاة والماء يشدها نزولاً، كانت ترفع يدها وإصبعيها، السبابة والوسطى، تنضمان ثم تنفرجان كحركة " المقصُّ". عندئذٍ، يا مولاي قلت لها: إن بعضاً من العادات السيئة المتأصلة في النفوس لا علاج لها والعِنَادُ أحدها، سيَّان في الرجال أم النساء. فقذفت بها إلى النهر. وكانت النتيجة كما رأيت يا مولاي، السارقة لم يبقَ لها ما تسرقه لأن كلَّ شيءٍ أصبح

بعهدتها، وأصبحتْ أحرصَ مني على مالي. ومُحِبَّةُ الرجال منعها الخجل من ممارسة عادتها، لتصبح مخلصة كلَّ الإخلاص لي وحدي.

فقال له الملك: أنت رجلٌ حكيمٌ أيها الفلاح الطيب، وقد أثبتَّ صحة المثل القائل "إن الفرس من الفارس".

ثم توجه إلى وزيره قائلاً: إليك أمري، عندما نعود إلى القصر ابعث في طلب هذا الرجل الكريم واصرف له مكافأة من بيت المال تمكنه من شراء مزرعة كبيرة واستثمارها، وتبقى الجاريتان ملكًا له. أما زوجته فتُخيَّر في أن تعودَ إليه أو لا، وفي أي من الأمرين اختارت تبقى سيدةً معززة مكرمة.

وفي صباح اليوم التالي، أمر الملك الجاريتين بإطاعة سيدهما إطاعة عمياء وإلا سيكون عقابُهما شديداً، بعد أن كشف عن وجهه لتعرفاه.

ثم ودَّعَ الفلاحَ كأنّه يودعُ نظيراً له، وانصرف وهو يردد على مسمع وزيره: "الحكمة لا تقتصر على الفلاسفة أو العلماء فقط".

الغراب القائد[8]

يُروى أنَّ في أحد بِقاع الأرض الجميلة غديراً محاطًا بالأشجار الغضّة المختلفة الأوراق والألوان والأثمار، من جوزٍ وصفصافٍ وحورٍ وعلّيق وغيرها، تعشش فيها مجموعاتٌ من الطيور والعصافير الجميلة اللطيفة التي لم ترفض يومًا استضافة أيٍّ من مثيلاتهن اللواتي كنَّ يقصدن ذاك الغدير من كل حدبٍ وصوب، لتنهل من مياهه العذبة النقية، وتريح أجنحتها في ظلِّ أغصان أشجاره الوارف.

وكما كان هذا الغدير قبلة المتعطشين للاستجمام في ربوعه، كان أيضًا محطَّ أنظار البزاة والعقبان المجاورة، الطامعة بخضرة وثمار أشجاره وعذوبة وصفاء مياهه. وقد تمكن أحد البزاة يومًا من السيطرة عليه مدة من الزمن، بغى فيها وتجبَّر وقتل وهجَّر وأحرق ودمّر. إلى أن استطاعت طيوره وعصافيره أن تنتفض يومًا وتتخلص من سلطان وظلم ذاك البازيّ، وراحت تلملم شَعْثَ بناتها

[8] قصة رمزية من الخيال. كتبتها يوم 2014/12/26.

وأخواتها من أصقاع الأرض، اللواتي هجرنَ غديرهن طوعًا أو قسرًا، ولتعيد لغديرها ما افتقده طويلا من استقرارٍ وأمنٍ وحرية.

وفي صباح أحد الأيام، وكانت تلك الطيور والعصافير مجتمعاتٍ فوق أغصان أشجار الغدير تتشاورن في أمورهنَّ، حطَّ غرابٌ على غصن شجرة جوزٍ، يمتدُّ فوق الغدير، وراح يتلفتُ يمينًا ويسارًا، صعودًا ونزولاً، ولما رأى صورته تعكسها مرآة مياه الغدير النقية، تنفَّضَ ونفش ريشه ورفع رأسه عاليًا بقدر امتداد عنقه، وأخذ يُنعم النظر فيما حوله من وجوه بنات جلدته. عرفته تلك الطيور فورًا وراحت تصفق بأجنحتها مرحبةً بعودة ابن بيئتها الذي شرده ذلك البازي الظالم، وقالت: "ها قد عاد إلينا أحد كبارنا، الذي سيكون لنا عونًا لننهض من كبوتنا ولنعيد إلى غديرنا نقاء مائه وصفاء جوّه وإلى أجنحتنا حرية هوائه".

عاود الغراب تشامخه ناظرًا إلى ما حوله مجيبًا بنعيقٍ غير ذي معنًى. ثم آوى إلى ربوة قريبة من الغدير آمنًا مطمئنًا.

بعدها صارت بعض كبار تلك الطيور تتسابق في طلب مودته، ولكنّه كان في كل مرة ينعق بغير معنى. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى بانت طويته وفُهِمَ نعيقه، فإذا به يعلن اليوم صداقته لمن شرَّده بالأمس. وأصبح القاصي والداني يسمع ويفهم نعيقه بمعناه: "سأكون أنا القائد الوحيد لهذا الغدير أو لا أحد غيري، حتى لو نضبت مياهه وماتت أشجاره".

ولم يزل ينعق تهديداً ووعيداً، من دون أن ترى عيناه أن ماء الغدير بدأت تنضب وأشجاره بدأت تموت وعصافيره عادت تهاجر زرافاتٍ ووحداناً.

ويتساءلون عن سحر الكراسي! فإذا كانت الطيور تتهالك في سبيل الوصول إليها، لا فرق عن أي طريق أو بأي وسيلة، فما عساه يفعل ذلك الإنسان الطمّاع المتكالب على حطام هذه الدنيا حتى آخر لحظة من عمره؟

القطَّة والفأرة[8]

في الأساطير أن القطاط والفئران كانت في الماضي تعيش سويّة بوئام وسلام، لا القطّة تصطاد فأرةً ولا الفأر يفرُّ هارباً عندما يرى قطّة. وقيل أيضاً إنّهما كانتا كثيراً ما تتقاسمان فيما بينهما بعضاً مما تجود عليهما الطبيعة من خيراتها من دون أي خوف أو تحسّبٍ لما قد يخبِّئُه الغد.

وفي أحد الأيام جاء ابن آدم واتّخذ له مسكناً بالقرب من أحد الأكمات التي كانت تقطنها مجموعة من القطاط والفئران. وكعادته أخذ هذا الإنسان يجمع المؤن صيفاً لغذائه شتاءً، وكان يضعها إلى جانب مسكنه الذي لم يكن يتسع لها معه ومع أسرته.

رأت الفئران تلك المؤن فظنَّت أنها أيضاً من خيرات الطبيعة، وبالتالي لها نصيبٌ فيها، فبدأت تأخذ منها غذاءً لها ولصغارها.

---

[8] قصة رمزية من الخيال.

لاحظ ابن آدم أن أجزاءً من مُؤنِه تتعرّض للقضم، فأخذ يبحث عن السبب إلى أن اكتشف أنّ ذلك من فعل الفئران. حاول عبثًا حماية تلك المُؤن بوسائل عدّة، فقد كانت الفئران أذكى منه في تحصيل غذائها. أما القطاط فقليلاً ما كانت تقرب غذاء ابن آدم الذي لم يكن بعد فيه ما تغريها رائحته أو طعمه.

ولما تبيّن له الفرق فيما بين غذاء القطّة وغذاء الفأرة، رأى أن القطاط أفضل وسيلة تريحه من اعتداءات الفئران. فبدأ باستمالتها والتقرب منها مطلقًا عليها الأسماء المتعددة، مثل الهرّ والسنور والبَسّ، مخصصًا صغارها بألطف المداعبات وأشهى ما تحبه من طعام يحضره لهن كلما أوى إلى مسكنه، فصارت القطاط أقربَ الحيوانات إلى ذلك الإنسان، حتى أسكنها معه. ثم راح يوغر صدورها كرهًا وعداوة للفئران إلى أن تمكّن من بلوغ غايته بتحويل القطاط حرّاسًا لمؤونته، وخصوصًا بوجه الفئران.

وفي أحد الأيام اقتربت فأرةٌ من بعض مؤن ابن آدم فماءت بوجهها هرّةٌ بمُواء لم تعهده الفأرة من قبل، ولكنّها لم تَخَفْ لما عهدته من صداقة بين القطاط والفئران، واستمرّت بالاقتراب، فردعتها الهرّةُ ثانية فلم ترتدع، عندئذٍ ضربتها بيدها ضربة قاتلة.

شعرت الهرّةُ، بعد ذلك، بالندم على ما فعلته فحملت الفأرة بفمها لتعيدها إلى جماعتها، وبينما هي كذلك سالت نقطة دمٍ من جرح الفأرة وجرت على لسان القطّة، فاستحسنت هذه طعمَها، فوضعت الجثّة أرضًا وراحت تلعق مما خرج من الدماء ولمّا نفد هذا، راحت تمزق الجثة بمخالبها وأسنانها حتى التهمتها بالكامل.

جرى هذا المشهد أمام عيني فأرة أخرى، فولّت هاربة لتخبر بنات جلدتها بما حدث وتحذّرهن من غدر الهِررة. أما الهرّةُ فعادت إلى جماعتها وأخبرتهنّ جميعًا عن ذلك الشعور بالتمتّع بتلك الوجبة الدسمة، ودعتهنَّ جميعًا لمهاجمة جماعة الفئران.

بحثت القطاط عن الفئران في كل مكانٍ كانت هذه تقصده، ولكن من دون أن تعثر لأي منها على أثر. لقد حفرت الفئران أوكاراً لها تحت أديم الأرض لتتقي شرَّ أصدقاء الأمس.

وبينما كانت إحدى القطاط تتجول في ربوع الأكمة، سقطت فأرة عن أحد أغصان شجرة، فبادرتها القطّة قائلةً: "الله الله"، فقالت لها الفأرة: "كُفِّي يدك عنّي وأنا بألف خيرٍ من الله".

فصار قول الفأرة هذا يجري على لسان كلِّ من عرف نيّة عدوٍّ يُظهِر له عكس ما يضمر.

الشيخ أبو علي بشير[8]

ولد الشيخ أبو علي بشير محمد أبو شقرا[8] وعاش في عماطور – الشوف وتُوفِّي فيها في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي.

كان شيخنا وقوراً، طيب القلب، محبًا، حسن الوجه، طويل القامة. وكان من القلائل الذين ميّزهم الله بجسدٍ خارقِ القُوى. ولو قدِّر له أن يمتهن نشاطًا رياضيًا لأصبح من الأبطال العالميين في زمانه، وخصوصاً في رفع الأثقال. ولكنه آثر التوجّه إلى شؤون الدين مترفعًا عن زُخرُف الدنيا. وقد سمعنا، في ريعان شبابنا، من بعض من عاصروه شاباً، رواياتٍ عدة عن قوته الجسدية أذكر منها:

قصّته مع "الإبراهيميّة"

---

[8] حكاية واقعية من روايات الآباء.. (أنهيت كتابتها في 2015/1/1).

[8] وهو جدُّ قريبنا وصديقنا الأستاذ المحامي رائف علي أبو شقرا أطال الله بعمره. ولذا آثرت أن أطلعه على هذه الكلمات قبل نشرها، فنالت إعجابه، وأفادني بأن قصة قطع أذن الثور حصلت في إحدى قرى جبل حوران لا في عماطور كما كنت أعتقد، فصححتها كما أشار. فللأستاذ رائف مني الشكر الجزيل.

"البارودة الإبراهيميّة" بندقيّة قديمة عرفها اللبنانيون أيام احتلال جيش إبرهيم باشا لسوريا من العام 1832 إلى العام 1840. وكانت هذه البندقيّة طويلةً وثقيلة الوزن بحديدها وخشبها. وقد كان الشيخ أبو علي في الثامنة عشر من سني عمره عندما أمسك بفوهتها بإصبعي يده اليمنى (الإبهام والسبابة) ورفعها، بذراعه الممدودة بموازاة كتفه، وأخذ يديرها يمينًا ويسارًا، تقوله يُحرّك قضيبًا من القصب أو الخيزران لا يزيد وزنه عن مائة غرام. وقد كان ذلك في بلدة المختارة وعلى مرأى من زوارها.

قصّته مع "القيمة"

كان من عادات اللبنانيين القديمة في الأعراس، كما يحصل في أيامنا هذه، أن يذهب العريسُ بموكب، يضم الكثير من أقاربه وأبناء قريته، "لردِّ العروس" أي لإحضارها من منزل والديها إلى منزلها الزوجي. وقبل توفر السيارات وآليات النقل الحديثة كان يتم الانتقال سيراً على الأقدام، وكانوا يصحبون معهم فرساً مزينة مجلّلة لتليق بحمل

العروس على ظهرها. وكانت أصوات الموكب لا تنقطع عن الزغاريد والأهازيج والغناء ذهاباً وإياباً. وإذا كانت العروس من غير قرية العريس فكانت العادة تقضي بأن يكون في عداد موكب العريس شخصٌ قوي الجسم يمكنه "شَيْل القَيْمَة". و"الشيل" أي الرفع، و"القَيْمَة" هذه كانت عبارة عن شيء من حجر ثقيل غالباً ما يكون "جرن كبّة" أو "مدحلة السطح"، (ومنهم من يقول "محدلة") وهي ما يرصُّون به أسطح البيوت الترابية في الشتاء لمنع تسرب مياه الأمطار عبر الأسطح إلى داخل المنزل، وكان يتولى إحضار هذه "القيمة" شابٌ من قرية العروس، وبعدما يطرحها أرضاً يعود فيرفعها أمام رفاق العريس، وينتظر أن يخرج من هؤلاء من يستطيع رفع هذه "القيمة" إلى المستوى الذي رفعها فيه ابن قرية العروس أو أعلى، وإذا لم يتمكن أيٌّ من رفاق العريس من "شيل القيمة" كما يجب، تتم "ردَّةُ" العروس من دون الأهازيج والزغاريد وغيرها إلى أن يغادر الموكب، صامتًا، حدود تلك القرية. وكان "شيل القيمة" يتكرر عند مدخل كل قرية أو بلدة قد يمرُّ بها

موكب "ردة" العروس، فإذا رُفعت "القيمة" رافق أبناءُ هذه البلدةِ موكبَ العرس بالأغاني والزغاريد حتى حدود بلدتهم، وإذا لم تُرفعْ أكمل ذاك الموكب سيره صامتًا، ومن دون أي مرافقة، إلى ما بعد حدود هذه البلدة.

ويقال بأن الشيخ أبو علي بشير كان السبب في إلغاء عادة "شيل القيمة" هذه في عماطور لأن "القيمة" التي كان يطرحها عجز عن "شيلها" عدة مواكب، فقرر كبار البلدة إلغاء تلك العادة، والتي تلاشت أيضًا مع الأيام من جميع بلدات الجبل.

قصّته مع الثور الهائج

في زيارةٍ له لإحدى قرى جبل حوران (السويداء حاليًا) صُودف أن بعضًا من أبناء تلك القرية همُّوا يومًا بذبح ثورٍ في إحدى زوايا ساحتها فقيدوا قوائمه ثم طرحوه أرضًا، ولكن الثور تمكّن من الإفلات من بين أيديهم وانطلق مُسرعًا كالسهم هربًا من سكينهم، وقد حتَّم عليه ضِيقُ مدخل تلك الساحة، أن يمُرَّ أمام أحد حوانيتها. وقد قضت

الصُّدف أن يخرج الشيخ أبو عليٍّ من ذلك الحانوت في اللحظة عينها التي مرَّ فيها الثور، وإذا بأحد الشبان يتوجه إلى شيخنا، ممازحا، قائلاً بصوتٍ عالٍ: "حَيْلَك عليه يا شيخ بو علي" أي عليك به. وقال الراوي بأنهم رأوا الشيخ أبا عليٍّ يمدُّ يده نحو الثور الذي استمرَّ بالجري، وأنَّ الشيخَ لم يهتز في وقفته، وكأن شيئًا لم يكن. فقال له ذلك الشاب، وكأنه يريد أي يعيِّره، ولكن ممازحًا أيضًا: "ولو هيك يا شيخ ما قدرت توقف الثور؟"، أي أهكذا يا شيخ لم تستطع إيقاف الثور؟ فأجابه الشيخ أبو علي: "شو بعملَّك ذينته ركيكة." (ماذا تريدني أن أفعل وأذُن الثور ضعيفة) ورفع يده عاليًا وأذن الثور تتدلى من بين أصابعه. لقد اقتلعتها يدُ شيخنا من رأس ذلك الثور الهائج كأنه يقتلع نبتة عشبٍ برية من تربة رُويت للتَّوِّ.

قصّته مع الضرسين

كما أخبرونا بأن الشيخَ أبا عليٍّ كان يخلع الضرس من دون الاستعانة بأيّ آلة خاصة بذلك، بل بإصبعيه، الإبهام والسبابة. ورَوَوا أن أحدهم جاءه يومًا شاكيًا ألمًا من أحد أضراسه ورجاه خلع ذاك الضرس. وبعدما أتمّ الشيخ عملية الخلع، قال له صاحب الضرس: لا يا شيخ الضرس الآخر لا يؤلمني فهو سليمٌ. فأجابه الشيخ: "شو بعملّك علق بظفري"، (ماذا تريدني أن أفعل لقد علق بظفري)؟

فيبدو أن ظفر إبهام شيخنا كان أقوى من أعصاب الضرس السليم فخلع الضرسين معًا.

رحمة الله عليك يا شيخ أبو علي.

المجنون والمئذنة[8]

يروى أن مجنوناً صعد أعلى المئذنة، في إحدى المدن، حاملاً طفلاً لا يتجاوز عمره العام الواحد. ثم راح يهدد ويتوعد بإلقاء الطفل من الأعلى إذا لم يجعلوه سلطان المدينة. فتجمع أبناء المدينة، بمن فيهم كبار القوم وأهل الحل والربط، في باحة المسجد يحاولون إثناءه عن عزمه، ولم يتركوا إلى ذلك وسيلة، من ترغيب أو ترهيب، ولكن من دون جدوى. وكان بينهم رجلٌ حكيمٌ، فقال لهم: يا سادة أنتم تخاطبون مجنوناً بالعقل والمنطق اللذين يفقدهما، فإني أنصح لكم أن تأتوه بمجنونٍ مثله ليقنعه.

فقالوا: فلنجرب، فأرسلوا من أتاهم بمجنونٍ آخر من أبناء المدينة. فقال له الحكيم: يا هذا لك منا هدية جميلة إن تمكنت من جعل هذا الرجل ينزل ويعيد الطفل سالماً إلى أبويه.

---

[8] قصة رمزية من حكايات الآباء. كيبتها يوم 2015/5/24.

فتقدم هذا المجنون نحو المئذنة ووضع يده على جدارها وخاطب نظيره قائلاً: إذا لم تنزل فوراً أنت والطفل، فسأهدم المئذنة بيدي هذه فتسقط بك وتموت أنت بالحال.

فلم تمضِ لحظاتٌ قليلة حتى هبط ذاك المجنون سُلّم المئذنة مسرعاً وسَلّم الطفل إلى والده ولاذ بالفرار.

هنا قال الحكيم: حقًّا لا يفهم المجنونَ إلا مجنون مثله. وكما قال الشاعر:

لكل شيء آفةٌ من جنسه

حتى الحديد سطا عليه المبردُ

ليس حُبًّا[8]

قال لي يوماً صديقي سامي، وكان قد جاوز عقده الثامن من العمر: أشعر برغبة في أن أرويَ لك حكايتي مع سلمى، وأترك لك حرية كتابتها ونشرها إذا شئت.

قلت: بل سيكون هذا من دواعي سروري.

قال: وُلدتُ في بيت محافظٍ ولكنه منفتح، في بلدة في جبل لبنان كان لها، كغيرها في تلك الأيام، عاداتها وتقاليدها النابعة من قيمٍ أخلاقية ودينية، فقدت كثيراً من صلاحيتها في هذه الأيام. وكان اختلاط الإناث والذكور في أثناء الدارسة، فيما قبل المرحلة الجامعية، قليلاً جدًّا إن لم نقلْ نادراً. حتى في الجامعات كانت الإناث قليلات العدد بالنسبة للذكور. ولم يكن المجتمع يعترف بالصداقة البريئة بين شابٍّ وشابةٍ، ولذا كانت معظم اللقاآت المختلطة

[8] عن قصة واقعية عرفت أشخاصها بنفسي. (أنهيت كتابتها في 2015/6/5)

تقتصر على التجمعات في المناسبات والأماكن العامة أو بوجود الأهل، حتى لو كان الشاب والشابة مخطوبين. هذا ما جعل لعلاقات الحب تلك القدسية التي احْتُضِرتْ في هذا العصر المادِّي، مأسوفًا عليها.

وقد غرس والدايَ في نفسي بذور تلك القيم الأخلاقية والدينية الجميلة ولكن من دون التحجر أو التزمت أو التمسك بالقشور أو بالظواهر بعيداً عن الجوهر. وبعدما أصبحت شاباً صرت بطبعي أحتفظ لنفسي بما أشعر أو أحسُّ به أيًّا كان نوع هذا الشعور أو الإحساس، فلا شأن، في نظري، للآخرين في ذلك، بمن فيهم والداي وأشقائي وأقربُ أصدقائي، لأنه أمرٌ يخصُّني وحدي. وكنت إذا ما لفتت انتباهي فتاةٌ أُبقي ذلك سرًّا في صدري ليتولى عقلي التحقق مما إذا كانت تلك الفتاة تصلح لأن تكون شريكة حياتي أم لا. كما كانت تلك القيم تمنعني من محاولة الإيقاع بالفتيات في سبيل لذة عابرة، لأنني كنت قد أخذت عهداً على نفسي بأن تكون زوجتي أول امرأة في حياتي أسوة بما كنت أريده منها في أن أكون أنا أول رجلٍ في

حياتها. سلوكي هذا أوقع أهلي ومن حولي في حيرةٍ من أمري. فقد طويتُ العقد الثالث من سنوات العمر، وكنت ناجحاً في عملي وقادراً بالتالي على تحمل نفقات بيتٍ وعائلةٍ خاصين بي، ولم يلحظ أيٌّ منهم بارقةً يفهم منها رغبتي في الزواج.

حاول أهلي وأصدقائي مراراً استعراض أسماء فتياتٍ رأَوا أن قد يكون بينهنَّ من تناسبني، وكنت في كلِّ مرة أتمكن من التملّص من المأزق، وكثيراً ما كان يتردد بين تلك الأسماء اسم قريبة لي تدعى سلمى.

وكانت سلمى هذه ابنة عائلة تربط بيننا وبينها رابطتان: القربى بالنسب والصداقة. هذه العائلة كانت تقطن إحدى المدن الكبرى، وكنا، منذ طفولتي، نتبادل وإياها الزيارات في الأعياد وفي فصول الصيف، فيستضيف بعضُنا بعضاً عدة أيام في كل مرة. هذه الزيارات كانت تزيد متعة طفولتنا بالأعياد. وكانت تلك العائلة تضمُّ، إلى جانب سلمى، التي كانت تصغرني ببضع سنوات، أطفالاً تقارب

أعمارهم أعمارنا أنا وأشقائي. بالتأكيد لم تكن براءة الطفولة وألعابها واللقآت المتكررة، لتترك في نفسي أيَّ شعور بالفرق بين الصبي والبنت.

تعاقبُ الأيامِ والسنواتِ زاد في أعمارنا حتى تخطيت أنا الثلاثين منها وأصبحت هي شابة جمعت إلى حُسن الخُلُق والأدب، حُسنَ الوجه وجمال القد. قبل أن يُطرحَ عليّ اسمها، كنت قد نسيت أنها كانت تلك الطفلة التي قاسمتها اللعب لسنوات عديدة، بل صرت أشعر، في كل مرة أراها، أنّ أمامي فتاةً غريبةً تفرضُ عليّ مبادئي والقيمُ التي نشأت عليها، أن أُبقِيَ بيني وبينها مسافة الغرباء على الرغم من شعوري، بل ويقيني، برغبة أهلي في أن تكون شريكتي في هذه الحياة، وكثيراً ما كنت أشعر برغبة والدتها هي أيضًا في ذلك.

وتمرُّ الأيام على هذه الحال إلى أن تقبلت الأمر، لا من قبيل حبٍّ جذبني نحوها ولكن نزولاً عند رغبة أهلي. وفي الحال تمَّ التحضير للسفر سريعًا لطلب يدها وكأنَّ الموافقة

حاصلة حكمًا وأنّ ما من شيء سيكون حجر عثرة، وما من أحدٍ قد يمانع زواجي بها.

وصلنا مدينتهم عصرًا، ونزلنا عليهم ضيوفًا وكالعادة استُقْبِلنا بالترحيب وبالوجوه البشوشة. أصول الضيافة لم تكن تسمح بأن يطرح الأمر قبل القيام بواجب الضيف الذي امتدَّ حتى ساعة متأخرة من الليل. وفي الصباح عُقِد اجتماعٌ مُغلقٌ بين والدِينا لبحث الموضوع، ولا أذكر لما لم أدعَ إلى ذاك الاجتماع، وكأنّ الأمر لا يخصّني البتة. أُبلغت في النهاية أن والدَيَّ فُوجِئا بردِّ والد سلمى بأن عليه سؤال إخوتها، بعد سؤالها هي، بينما كانت العادة في تلك الأيام لم تزل بأن الوالد وحده صاحب الحق بالقبول أو الرفض. ثم كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لوالدَيَّ بأن جاء الجواب بالرفض القاطع من دون ذكر السبب أو الأسباب.

عندما أُبلغتُ الجواب، لم أشعر بأي خيبة أملٍ ولم أقم بأيِّ ردة فعل فالأمر سِيَّان عندي. ولكن والدة سلمى، وقد كنت دومًا أشعر منها بحنان الأمّ تُجاهي، اقترحت أن ننفرد أنا

وسلمى لعلها تُقنعني بأن ليس فيَّ أيٌّ عيب يسبب هذا الرفض.

اتخذَ كلٌّ منا، أنا وسلمى، مقعداً له على شرفة منزلها بعد عصر ذلك اليوم الصيفي المعتدل الحرارة، وكانت تلك أول مرة لا يكون فيها معنا رقيبٌ أو حسيب. بادرتني سلمى بقولها: آمل ألاّ يكون قرارُ أبي قد جرحك أو أزعجك، وهو لم يشرح لنا نحن أيضاً، أنا ووالدتي، سبب اتخاذه قراره هذا. وأرجوك ألاّ تحزن وألاّ يكون لذلك أيُّ تأثيرٍ سلبيٍّ على حياتك الشخصية أو العملية..

لم أدعها تكمل كلامها لأنني شعرت منه أنها تريد أن تهوِّنَ عليَّ أمراً قد يوصلني، في اعتقادها، إلى حدِّ الجنون كما حصل لقيس بن الملوح (أي مجنون ليلى) أو سواه. فقلت لها:

اسمعيني جيداً، أنتِ تعرفينني منذ كنَّا نتشارك اللعب سوية وببراءة الأطفال، ولكنّكِ لا تعرفي ما أنا عليه اليوم. إذا رأيتني هادئ الطبع قليل الكلام فهذا لا يعني أنني ضعيفٌ

أمام ما قد يواجهني من عقبات في حياتي، كما أن لي إرادةً تنفِّذ بصدقٍ وقوةٍ ما يقرره عقلي. وإذا كانت محبة الآخرين تملأ قلبي فثقي جيداً أنني على استعدادٍ لأن أدوس على هذا القلب إذا رأيت منه ما قد يشكل حجر عثرة في مسيرتي في هذه الحياة الدنيا. فاطمئنّي ولا تحملي همّي ولا تشعري بعقدة الذنب أو بأنك ارتكبتِ أيّ خطأٍ تُجاهي.

وكي لا أخدشَ إحساس أنوثتها، لم أُفصِحْ لها بأنني لست مغرماً بها، وأن قبولي طلب يدها كان قراراً اتخذه عقلي لا قلبي، ثم تابعت كلامي قائلاً: ولكن أرجو أن تُصدقيني القول، هل لديك أنت وحدك رغبة حقيقية في أن تكوني زوجة لي؟ وقبل سماعي جوابها أكملت: فسترين في هذه الحال أنني سأحارب لتحقيق هذه الرغبة حتى النصر.

فأجابت: ما دام والدي رافضاً زواجنا فسأبقى طوع أمره ولن أُعارضه أبداً حتى لو بقيت عانساً بقية عمري ومهما كلفني الأمر.

فقلت: شكراً لكِ، لقد فهمت الرسالة جيداً وأتمنى لكِ التوفيق التام في كل خطواتك، وحظًا سعيداً، فقد أرحتني.

وفي ذلك اليوم كانت نهاية قصتي معها، ولم تسمح لنا، بعده، الأيام ولا سنوات الاغتراب، في أن نلتقي ثانية ولو للقاء عابر.

ولما أنهى سامي كلامه، قلت له: يا صديقي، أشكر لك ثقتك بي وبالتأكيد، نعم سأكتب قصتك هذه يومًا ما، لما فيها من سموٍّ الأخلاق وشهامة الرجولة، وسيكون عنوانها: "ليس حبًّا"، لأنّي أراه ينطبق حقًّا على ما كان بينكما، كما رويتَه، إلاّ إذا كان لك رأي آخر.

فلم ينطق بغير كلمات الوداع والشكر، وانصرف.

"بَيْطَرَةُ" الجِمالِ[8]

كانت مهام الإقطاع في جبل لبنان، في القرن التاسع عشر، تُحتِّم على كلِّ إقطاعيٍّ أن يُوكِل أمر إدارة شؤون أملاكه إلى وكيلٍ واحدٍ أو عدة وكلاء، حسبما يقتضيه توزع أماكنها ومساحاتها. وكان الإقطاعي يختار هذا الوكيل، غالبًا، من أتباعه ومن المشهود بأمانتهم وقدرتهم على القيام بمهامهم خير قيام.

وكانت العادة أن يوردَ الوكيل غِلال الأرض، المُوْكل عليها، في مواسمها، إلى دار صاحبها حسب حاجة هذه الدار، كما يحددها هذا الأخير أو كبير الوكلاء. أما ما كان يفيض من تلك الغلال فكان الوكيل يتولى بيعه ثم يرسل الثمن إلى الدار تباعًا أو يبقيه بحوزته إلى وقت المحاسبة، ودومًا حسب تعليمات المالك. وكان الإقطاعيُّ يحدد،

[8] من واقع حياة اللبنانيين في القرن التاسع عشر. من حكايات الآباء. كتبتها في 2015/6/7.

أيضاً، للوكيل أوقات المحاسبة التي عادة ما تكون في نهاية الموسم أو نهاية الحول. وعندما يحين هذا الموعد كان الوكيل يحضر إلى دار الإقطاعيِّ حاملاً ما تبقى معه من المال بالإضافة إلى بيان الحساب. وكان عليه أن يمكث في تلك الدار حتى يأذن له صاحبها بالانصراف بعد الانتهاء من مراجعة الحساب والموافقة عليه. وفي حال الشك كانت تنزع، بأمر الإقطاعيِّ، تلك المهام من يد ذاك الوكيل وتعطى إلى خلفه.

كانت أملاك أحد كبار أولئك الإقطاعيين تمتاز بتعدد أماكنها، في الجبل وفي خارجه، وبمساحاتها الشاسعة بحيث كانت عبارة عن مزارع تنتج غلالاً متنوعة من زراعية وحيوانية. وكانت مهام هذا الإقطاعيِّ لا تسمح له كثيراً في أن يراجع بنفسه حسابات جميع وكلائه. ويروى أن أحد وكلائه جاءه مرة في موعد المحاسبة، وبعدما سلَّم بيان الحساب لمن يتولى تقديمه لسيده، مكث في الدار ينتظر الإذن كالعادة. وصودف أن ذاك السيد، لمَّا تسلم البيان كان يستضيف صديقًا له من أصحاب الرأي

والدراية، فأحال عليه البيان طالبًا منه مراجعته. وما أن ألقى ذلك الضيف نظره على هذا البيان حتى علا صوته بالضحك. فسأله عما يضحكه، فقال له: هذه أول مرة أعرف فيها أن الجِمالَ "تُبَيطَرُ"، إنّ في مصاريف هذا البيان عدة قيودٍ لمبالغ تمثل كلفة "بيطرة الجمال".

وقد كانت البيطرة في تلك الأيام تقتصر على تثبيت "حذوة" على أسفل حوافر الدواب من الخيول والحمير والبغال، كي تحميها من قساوة الأرض في أثناء سيرها، بينما الجِمال ليست من ذوات الحوافر كي "تُبيطر".

وكان صاحب الدار يثقُ كثيراً بذلك الوكيل، فأمر بإحضاره. فدخل الوكيل على سيده وحياه حسبما كانت توجب العادات والتقاليد في تلك الأيام. فناوله سيد الدار البيان، سائلاً عن أمر تلك البيطرة. فتناول الوكيل البيان ونظر إليه قليلاً، ثم رجا سيده أن يقبل عذره عن هذا الخطأ، وحذفه من الحساب وعدّل النتيجة.

فقال سيد الدار: لقد قبلنا عذرك لما نعهد فيك من الأمانة، وأنت مسامح أيضاً من تسديد فرق الحساب.

ولكن الوكيل طلب إعفاءه من مهامه. فتعجّب سيده مستفسراً السبب. فقال الوكيل: ما دمتم يا سيدي قد عرفتم أنّ الجِمالَ لا "تُبَيطر" فلم يعد في العمل لديكم أيُّ جدوى.

جون وماري[8]

كان جون وماري يعيشان في إحدى المدن الأميركية الصغيرة. جمعتهما في البدء مقاعد الدراسة منذ الحداثة وحتى نهاية المرحلة الجامعية في مطلع الحرب العالمية الثانية. كما جمع الحبُّ بين قلبيهما، يوم كانت لم تزل بعد للحبِّ قدسيةٌ روحيةٌ تجعل الزواجَ قِمةً وتاجًا له، ولم يكن المجتمع الأميركي بعد يتقبلُ ما يسمى اليوم بالمساكنة ولا بالعلاقة الجنسية قبل الزواج، كما هي الحال في هذا العصر، الذي تفككت فيه أواصر الأسرة ومعها تفكك المجتمع.

دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب، حرم جون وماري إتمام الزواج كما كانا يخططان. لقد فرضت تلك الحرب على جون أن ينضمَّ إلى عساكرِ بلاده لمحاربة

[8] عن قصّة من واقع الحياة ومن عجائب القدر، رواها لي الصديق إبرهيم قاسم إبرهيم. (أنهيت كتابتها في 2015/6/24)

اليابانيين، ولم يكن بعد قد مضى على تخرُّجه في الجامعة بضعةُ شهورٍ.

سافر، وكلُّه أملٌ في أن يعود إلى حبيبته فور انتهاء مدة تلك الخدمة العسكرية، وكانت ماري بدورها تنتظر ذلك بفارغ الصبر. استعاضَا عن تلك اللقاآت البريئة، التي كانت تجمعهما يوميًا، بكلماتٍ، تُجسّدُ إحساسَ كلٍّ منهما، يخطُّها قلمُه على أوراقٍ يتبادلانها رسائل يومية.

مضت بضعةُ شهورٍ وهما على هذه الحال، إلى أن انقطعت رسائل جون فجأة، ومن دون سابقِ إنذارٍ، عن حبيبته التي استمرَّت تبعثُ له برسائلها آملةً الجواب، ولكن من دون جدوى.

لم يكن أمام ماري سوى أن تعودَ إلى قيادة قواتِ بلادها للسؤال عن مصير حبيبها. وعلى الرغم من سعيها الحثيث، أيامًا وشهوراً وسنوات، فلم تتمكن هذه القيادة من معرفة مصير جون، مما جعلها تعتبره، قانونيًا، في عداد المفقودين.

عندئذٍ شعرت ماري بأن أملها في تحقيق حلمها بالزواج بجون قد ضاع، ولكن نارَ حبّها له، وإن خمدت بين أضلاعها، فلم تهمد أبداً. لقد بقيت، في كل يومٍ، تزور تلك الزاوية من حديقة المدينة التي كانت تشهدُ لقاآتهما، يرافقها حلمُ رؤيته ينتظر قدومها، على ذلك المقعد الذي كثيراً ما حضن جسديهما وتمتع بسماع همس أحاديثهما.

وضعت الحرب أوزارها وتبادلت الدول المتحاربة الأسرى فيما بينها، ولكن جون لم يسمح له اليابانيون باستعادة حريته إلا بعد مضي ست سنوات على انتهاء تلك الحرب.

عاد جون بعدها إلى بلاده وإلى مدينته التي شهدت حبَّه لماري، ثم إلى المنزل الذي كانت تعيش فيه مع أهلها. المنزل وحديقته لم يزلا كما عهدهما يوم جاء لوداع حبيبة قلبه قبل الالتحاق بواجبه الوطني. قرع الباب، ونبضات قلبه تتسارع استعداداً للقاء ماري، سيأخذها بين ذراعيه ويضمُّها طويلا ليعوضَ ولو جُزءاً صغيراً جداًّ مما حرمته منه سنوات الأسر.

فُتح الباب، ولكنها لم تكن ماري التي فتحته، ولا شقيقتها ولا والدتها، بل كانت سيدةً في سنِّ الكهولة. وقف أمامها ينظرُ إلى وجهها حائراً من دون أن ينبس ببنت شفة، فهو لم يعد يشعر بالقدرة على الكلام ولا على الحركة مما جال في رأسه من الأسئلة المتشابكة. من تكون هذه السيدة؟ وأين ماري؟ لماذا لم تستقبله هي؟ هل أصابها مكروه؟ لم يعد إلى رشّده إلا بعدما سألته تلك السيدة المجهولة عما يريد.

فقال لها، والخوف يملأ صدره مما قد تجيب به: أين ماري؟

قالت: من تكون ماري هذه التي تسأل عنها؟ لا أحد عندنا بهذا الاسم، بل أنا وزوجي نسكن وحيدين في هذا البيت.

قال: يا سيدتي، أنا عائدٌ للتوِّ من اليابان بعد ما يزيد عن السنوات العشر أمضيتها في الأسر هناك إثر التحاقي بقواتِ بلادنا التي كانت تحارب على تلك الجبهة. وفي هذا المنزل كانت تعيش ماري التي أحببتها وأحبتني منذ كنا

يافعين، وكنا على وشك الزواج لولا تلك الحرب الملعونة التي فرقت بيننا وحرمتنا تحقيق حلمنا كل هذه السنوات. فأرجوكِ، يا سيدتي، أخبريني أين هي؟ فإني أتحرَّقُ لرؤيتها.

قالت: دعني أولاً أُهنِّئك بالعودة سالمًا إلى وطنك أيها البطل. ولكن يُؤسفني أن أقول لك بأنني لا أعرف شيئًا عن حبيبتك ماري. لقد انتقلنا إلى العيشِ في هذا المنزل منذ ما يزيد عن السنوات الثلاث. ويوم زرناه أولَ مرة لم يكن يقطنه أحد، بل لم يكن يحوي أي قطعة من الأثاث. وقد أعلمنا، يومها، الوسيط بأن أصحابه هجروه قبل ذلك بنحو الثلاث سنوات. وكلُّ ما أستطيع مساعدتك فيه هو أن أعطيكَ عنوان الوسيط، واسمه وليم، لعله يفيدك في الوصول إلى غايتك.

أخذ جون العنوان شاكراً لتلك السيدة لطفها. ولكنه لم يذهب فوراً لرؤية وليم هذا، بل قام بقرع أبواب العديد من المنازل المجاورة لمنزل حبيبته سائلاً عنها، ولسوء حظّه

لم يجد بين ساكنيها من يعلم شيئًا، سواءً عن ماري أم عن أيٍّ من أفراد عائلتها، لقد كانوا جميعهم حديثي العهد في هذا الحيِّ.

عندئذٍ، أوقف جون أول سيارة أجرة مرَّت أمامه وطلب من سائقها أن ينقله إلى مقرِّ الوسيط وليم. وفور دخوله مكتب هذا الأخير، وبعدما حياه وعرَّفه بنفسه، قال له: يا سيد وليم، منذ نحو الثلاث سنوات، تمت بواسطتك عملية بيع منزل السيد جورج الكائن على شاطئ البحيرة الغربي، فهل لك أن تُفدني أين يمكنني أن أجد السيد جورج أو أيًّا من أفراد عائلته؟ وخوفًا من أن يمتنع وليمُ عن الجواب خشية أن يكون خلف هذا السؤال أمرٌ قد يكون سيئ العاقبة، روى له جون، باختصارٍ، قصته مع خطيبته ماري ابنة جورج حتى وقوعه بالأسر.

قال وليم: إنَّ الصدقَ بادٍ على وجهك يا سيد جون، ولكن للأسف ليس لديَّ ما يمكن أن يساعدك. نعم لقد جاءني السيد جورج طالبًا مني مساعدته في بيع ذلك المنزل الذي

لم يكن يومها يقيم هو فيه ولا في مدينتنا هذه أيضاً. ولم أزل أذكر جيداً تلك العملية لأنها كانت من أسرع العمليات التي جرت بواسطتي، فقد تمت في مدة لم تتجاوز الأسبوع. وفور تسلمه ثمن المبيع غادر السيد جورج المدينة من دون أن يترك لي عنوانه، ولم أطلبه أنا بدوري، لأن هذا لم يكن واجباً علينا كما هي الحال في هذه الأيام. فأستميحك عذراً وأتمنى لك حظاً سعيداً.

انصرف جون، شاكراً للسيد وليم، وقد بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه. ولكنه تذكر هيلين صديقتهما المشتركة والوحيدة من زملاء الدراسة التي كانت تعيش، حينها، في هذه المدينة. ذهب يسأل عنها حيث كانت تقيم، ولكن للأسف لم يجد لها أثراً، ولا من يمكنه أن يرشدَه إليها. عندئذٍ أيقن ألاّ سبيل للقاء حبيبته فاستسلم لقدره، ولكنَّ حبَّه لم ينطفئ. قفل عائداً إلى منزله وإلى حضن أمِّه التي تولت مداواة جرحه بعطفها وحنانها. وبكلماتها الطيبة عملت على تغليب الثقة بنفسه على ما داخلها من اليأس والأسى.

استقرَّ جون في مدينته وفي كنف والديه، وأخذَ العمل جُلَّ وقته ولم يترك له فرصة التفكير في الزواج الذي كان هو أيضاً قد استبعده عن مخيلته بعدما فقد أثر ماري.

وتمرُّ الأيام رتيبةً، إلى أن يفرِض عليه عقدُ عملٍ السفرَ إلى لندن، مدينة الضباب، عاصمة المملكة المتحدة. وبعد بضعة أسابيع من وصوله إليها وبدئه العمل فيها، ذهب يوماً إلى أحد مطاعم المدينة المشهورة لتناول الغداء، وإذا به يقفُ، من دون حراكٍ كأنما قدماه قد سُمِّرتا بالأرض، أمام طاولة يجلس إليها رجلٌ وامرأة. راح يرنو إلى تلك المرأة جيداً، ومرّةً بعد مرَّة يُغمضُ عينيه ثم يفتحهما ثانية بعدما تتداول أصابع يديه عركهما، ليتحقق مما يراه، أحلمٌ هو أم حقيقة؟ وهل يعقل أن تكون هذه السيدة هي ماري؟ أيعقل أن يكون القدرُ قد جعله يقطع آلاف الكيلومترات ليأتي إلى لندن، وليلج هذا المطعم وفي هذه الساعة بالتحديد، ليجمعه بحبيبة عمره؟ أم هي محضّ صُدفة؟ أم

هو في حلمٍ؟ وبينما هو يسبح في بحر أفكاره، فإذا بصوتٍ دافئٍ، طالما حلم بسماعه ثانية، يقطع حبل تلك الأسئلة، إنها حقًا ماري تقف بالقرب منه، وتناديه فاتحة ذراعيها، تقولها انفصلت عن واقعها إلى عالمٍ غارقٍ في القدم. ارتمى كُلٌّ منهما على صدر الآخر وغابا عمّا حولهما، في عناقٍ طويلٍ، والفرحة تغمر قلبيهما والدموع تملأُ أعينهما. لم يعرف أيٌّ من رواد المطعم، معنى هذا المشهد سوى ذاك الرجل الذي كانت تجالسه ماري، والذي ترك مقعده واقترب منهما وربّت برفقٍ على كتفيهما. فعادت ماري إلى واقعها وراحت تتلعثم بعبارات الاعتذار تخرج متقطعة من بين شفتيها، ثم تهدأ وتقول: إنه جون يا هنري! ثم تستدير إلى جون قائلةً: أقدِّمُ لك هنري، زوجي.

أعادت الصدمة الجديدة جون إلى واقعه المرير. فهذه ماري أمامه ويدها بيده ولكنها ليست له. فيعود إلى أعماقه قائلاً في سرِّه: لماذا جمعتني بها ثانية أيها القدرُ ما دامت قد تزوجت غيري؟ وما هو الذنبُ الذي اقترفتُه كي أُعاقب بهذا العذاب المؤلم؟

ولكنَّ هنري انتشله من بِئرِ أفكاره وحيرته، حين دعاه، وبكل احترامٍ، إلى الجلوس معهما. وكي يهدّئ من روعه بادره قائلا: سأسمح لنفسي أن أناديكَ، جون، من دون أي لقبٍ، وأقول لك بأن ماري قد أخبرتني قصةَ حبكما بكامل تفاصيلها قبل زواجنا، ودعني الآن أطلبُ لك ما يُدخِلُ الدفء إلى نفسك، أفنجانًا من القهوة تفضِّل، أم كأسًا من الشاي؟

وما أن انتهى جون من شرب الشاي حتى طلب الإذن بالانصراف، فهو لم يعد يشعر بأي رغبة في الأكل الذي جاء هذا المطعم لتناوله. فقال له هنري: ولكن، أرجوكَ رجاءً حارًّا، أن تقبل دعوتي إلى العشاء هذا المساء في منزلنا، وتأكد جيداً بأنَّ حضوركَ سيُسرّني جدًّا، وأتمنى ألاّ ترفض دعوتي هذه مهما كان السبب.

خرج جون من المطعم، بعدما أعطاه هنري عنوان المنزل، والألم يعصر قلبه. ذهب مباشرة ليختلي بنفسه، في غرفته بالفندق الذي ينزل فيه منذ وصوله إلى لندن. وعادت

تتقاذفه الأسئلة المحيّرة وقد زادتها عدداً دعوة هنري له إلى العشاء. فماذا يريد منه هذا الرجل بعدما أخذ منه حبيبَته؟ وما وراء هذه الدعوة؟ هل ينوي التخلُّص منه لتبقى ماري له وحده؟ أم أنه يرغب في تبرير فعلتها بقبولها الزواج به؟ ولماذا لم تنتظر هي عودته كما تعاهدا لمَّا جاء لوداعها يوم ذهب إلى الحرب؟ هل يملك هنري ثروة جعلت ماري تنسى ذلك العهد وذلك الحب؟ أمواجٌ من الأسئلة والأفكار المحيرة تدافعت في رأسه، وهو يذرع الغرفة طولا وعرضاً، إلى أن هدأ قليلا عندما قرر تلبية الدعوة حتى لو دسَّ له هنري السُمَّ في الطعام، فيكون عندئذٍ وجه ماري آخر صورة تحتفظ بها عيناه قبل الإغماضة الأخيرة.

في الوقت المحدد ترجل جون من سيارة الأجرة التي نقلته إلى منزل هنري، فإذا به في أحد أحياء لندن الراقية، وأمام صرحٍ من ثلاث طبقات يعلو سطحه هرمٌ من القرميد، وتحوطه حديقة فسيحة، تزينها أشجارٌ خضرٌ متنوعة الأحجام والأنواع، وأغراسٌ من الورود والزهور المختلفة

الأشكال والألوان. لقد صدق حدسه، فهنري من أصحاب الثروات الطائلة.

تردد قليلاً قبل أن يعبر الحديقة إلى باب المنزل الرئيسي. قرع الباب، ففتح له رجلٌ يبدو من مظهره أنه خادَمٌ في المنزل، فبادره هذا، قائلاً: أنت السيد جون؟ إن السيد هنري بانتظارك، تفضل بالدخول. فأدخله إلى بهوٍ فسيحٍ عالِ السقفِ فيه من الأثاث والتحف الأثرية واللوحات القيِّمة ما أشعَره بأنه في زيارة أحد المتاحف. ولكنه لم يرَ ماري، فأين هي؟

هوذا هنري يناديه مرحباً ومتوجهًا لاستقباله، والابتسامة لا تفارق مُحيّاه. صافحه وشكر له تلبية الدعوة، ودعاه إلى إحدى الغرف المفتوحة على البهو. دخل ممنيًا النفس بأن تكون ماري بانتظاره في تلك الغرفة التي حوت من الأثاث ما يريح الجسد والنظر. ماري ليست هنا أيضًا. لم يسأل عنها أدبًا. وجلس على مقعدٍ في إحدى زوايا الغرفة، حسب إشارة هنري الذي جلس بدوره على مقعدٍ في ضلع الزاوية

الآخر. وبعد كلمات ترحيبٍ وجيزة سادَ صمتٌ لهنيهاتٍ قليلة، حسبها جون ساعاتٍ بطيئةِ الدقائق، قطعها هنري قائلاً: لحظات وتكون ماري معنا. لم يكد يُنهِي كلامه حتى دخلت ماري مرتديةً فستانًا يزيدُ قدَّها جمالا، ومن أحدث الصناعات وأجملها، أحمر اللون، أحبُّ الألوان إلى قلب جون، تعلو وجهها ابتسامةُ المُحبِّ للحبيب، وكلمات الترحيب تتوالى من بين شفتيها. أحسَّ جون أن أضلاعه لم يعد بوسعها منع قلبه من الفرار من سجن صدره، لشدّةِ وتسارعِ نَبَضاته. اقتربت منه وصافحته بكل احترامٍ وحياء، ثم اتخذت لها مقعداً بجانب زوجها.

بعد تناولهم بعضاً من الشراب، على عادة الإنكليز، بدقائق معدوداتٍ، دخلت عليهم سيدة في العقد الخامس من العمر، لتدعوهم إلى غرفة الطعام.

لم تشهد المائدة حديثًا يذكر لأن الإنكليز بطبعهم قليلو الكلام في أثناء تناولهم الطعام.

بعدها عاد الثلاثة إلى غرفة الجلوس ورجع كلٌّ منهم إلى مقعده. وبعد تداولهم عبارات الشكر والمجاملة، توجه هنري إلى جون قائلاً: يا صديقي جون، هذا إذا كنت تقبل صداقتي، لدي كلامٌ أرجو أن تُعيره الأذُنَ المصغية جيداً.

انقبضت أسارير جون خوفًا من مجهولٍ قد يزيد جروحَه ألمًا، ولكن طلب الصداقة أراحه بعض الشيء، فأجاب: سيكون من دواعي سروري أن نصبح صديقين، وأنا على أتم الاستعداد لسماع ما تنوي قوله.

فقال: لقد كانت تربطني علاقة عمل بإحدى الشركات الأميركية، ما كان يفرضُ عليّ زيارة مكاتبها، في نيويورك، عدة مرات في العام الواحد. ويشاء القدر أن تكون ماري أحد أعضاء الفريق المكلف بشؤون علاقتي مع الشركة. ومع الأيام نشأت بيننا صداقة متينة جعلتني أسمح لنفسي أن أسألها يومًا عن سبب مسحة حزنٍ كنت أراها دومًا على وجهها. لم تمتعض ولم تتردد عن الإجابة. وقد أخبرتني فيما بعد أنها كانت تشعر بحاجة إلى أن

تُفصح عما في قلبها شرط أن يكون السامع صديقًا يتفهمها ولا يستغلُّ سرَّها. فروت لي بالتفصيل قصة الحبِّ التي عشتماها حتى يوم ذهابك إلى تلك الحرب اللعينة، التي أودت بحياة الملايين من البشر. ويوم انقطعت رسائلك عنها فجأةً كادت تصاب بمسٍّ من الجنون، ولكن أمل المحبِّ حماها من ذلك وأخذت تذهب يوميًا إلى مركز القيادة العسكرية تتنسم أخبارك، إلى أن أبلغتها تلك القيادة أنك أصبحت بحكم القانون، مفقودًا، وبأن لا جدوى من عودتها للسؤال عنك ثانية. وضعت تلك الحرب أوزارها فراحت تمني النفس بعودتك، ولكنها عبثًا انتظرت. ثم عاد هذا الأمل يراودها مع بدء عملية تبادل الأسرى فيما بين الدول التي اشتركت بالحرب. وعلى الرغم من عودة آخر أسيرٍ من مواطنيكم، فقد انتظرتك ما يزيد عن ثلاث سنوات لتنتقل بعدها مع أهلها للعيش والعمل في نيويورك، وبالتحديد في تلك الشركة. وبعدما رأيتُ أنها قطعت الأمل من عودتك، طلبت يدها. تأرجحت بين القبول والرفض لما

يزيد عن الشهرين، قبل الإجابة بالقبول، وهكذا انتقلت للعيش معي هنا في لندن.

ثمَّ أضاف: ولكن هل لك أنت أن تخبرنا ماذا جرى لك كي تنقطع أخبارك طوال هذه السنين؟

روى لهما جون تفاصيل ما جرى له فقال: لقد وقعتُ، في إحدى المعارك، أسيراً بأيدي القوات اليابانية. ولما عرف قادة هذه القوات بأنني صاحبُ اختصاصٍ في هندسة التبريد نقلوني من معسكرات اعتقال الأسرى إلى أحد المصانع للاستفادة من علمي، ولكن من دون أن يرفعوا عني قيود الأسر بما فيها حرماني من مراسلة إيٍّ كان. وعلى الرغم من انتهاء الحرب وتبادل الأسرى، فقد بقيت مجبراً أن أستمرّ في ذلك العمل ست سنوات بعد انتهاء الحرب، إذ كان اسمي قد رفع من جداول الأسرى، ولم أسترد حريتي إلاّ بعدما تنبَّه إلى ذلك، أحد مسؤولي المصنع، الذي أصبحت وإياه صديقين.

كانت عينا ماري تغرورق بالدمع مع كل جملة ينطق بها. إلى أن روى لهما ما جرى معه في أثناء بحثه عنها، عبثًا، إثر عودته إلى مدينتهما، وما خلفه ذلك من اليأس في قلبه؛ عندئذٍ لم تعد تتمكن من كبت شعورها، فانفجرت بالبكاء. فساد صمتٌ رهيبٌ ناتجٌ عن أمرٍ مجهولٍ قد يحصل. إلى أن قطعه هنري قائلا:

أرجو أن تسمعاني كلاكما جيداً. لقد مضى على زواجنا ما يقارب السنوات الأربع، كانت لي فيها ماري نعم الزوج والرفيق والصديق، ولكن القدر منع عنَّا الخَلَف. ومما رأيت وسمعت ازددت قناعةً أنَّ جذوة حبكما لم تنطفئ. فإني، وعن طيب نفسٍ تامٍّ، على استعدادٍ للموافقة فوراً على الطلاق، إن رغبت ماري، لتتزوجا بعده. وسيكون من دواعي سروري أن أصبح صديقًا لكما مدى العمر.

وقع هذا الكلام المفاجئ وغير المتوقع، كالصاعقة على ماري وجون، ولم يدرِ أيٌّ منهما بماذا يجيب أو أيّ قرارٍ سيتخذ وكأن لسانيهما قد عُقِدا.

ثم عاد هنري وأكّد أن قراره هذا جدّيٌّ ولا رجوع عنه إلاّ بقرارٍ معاكسٍ من ماري. وأضاف أنه يترك لهما الوقت الكافي للتداول فيما بينهما، ولا مانع لديه في أن يلتقيا وحيدين متى وأينما يشاآن، ليتخذا قرارهما النهائي، مؤكداً لماري بأنه لن يحمل في صدره تُجاهها أيَّ شعورٍ من ضغينة أو سوء إذا ما فضلت العودة إلى تحقيق حلمها القديم بزواجها بجون.

أنهى هنري كلامه، ولكن الصمت استمرَّ مخيماً على ماري وجون، وكأن كلاّ منهما غارقٌ في غيبوبة عميقة، إلى أن استعاد جون رُشدَه، بعد دقائق بطيئة الثواني، فانتصب، على قدمين شعر بأنهما قد لا تقويان على حمل جسده، وكلُّ ما استطاع التفوه به بِضعُ كلماتِ استئذان بغية العودة إلى "صومعته" في الفندق. فودّعه هنري حتى الباب الخارجيِّ حيث شدَّ على يده قائلاً: هذا البيت يرحِّبُ بك ساعة تشاء. فأجابه جون بابتسامة وانحاءةِ رأسٍ، وانصرف. أما ماري فآثرت الصعود إلى غرفتها في الطبقة الثانية من البيت، بعدما استأذنت زوجها.

في طريق عودته إلى الفندق، سابحاً في بحر أفكاره، لم يرَ جون أيًّا من تلك الأنوار المتعددة الألوان والأشكال التي تزين شوارع لندن العريقة ومحالَّها التجارية الفخمة وأبنيتَها الأثرية، إلى أن أوقف السائق السيارة أمام مدخل الفندق، قائلاً: ها قد وصلنا أيها السيد. فترجَّل جون، شاكراً بعدما نقده أجره.

لم يغمض له جفنٌ تلك الليلة. إذ عاودته حالة التساؤل التي أصابته قبل ذهابه إلى منزل هنري: هل ما سمعه من هنري هو حلمٌ أم حقيقة؟ وكيف لرجلٍ أن يتخلّى عن زوجه بمثل هذه البساطة؟ أهو حقًا يُقدِّسُ الحبَّ وروابطه؟ أم هو مجنونٌ؟ أم أنه سئم العيشَ مع ماري؟ وما السبب؟ ألإنها لم تلد له؟ أم خشيَ أن تعمد إلى خيانته مع حبيبها السابق؟ أم أن وجوده وإياها في مدينة واحدة قد يكون سببًا ينكِّدُ عيشَه؟... آلاف الأسئلة جاشت في صدره من دون التوصل إلى جوابٍ لأيٍّ منها قد يهدّئُ روعه.

في الصباح ذهب إلى عمله، لعلّه يُشغلُه عن تلك الأفكار، ولكن عبثًا، فهي لم تفارق مخيلته طوال النهار. امتدت يدُه مرارًا لتمسك بسماعة الهاتف ليكلّمَ هنري ويشكر له دعوته، ولكن في كل مرة كان يعيدها إلى مكانها، من دون أن يفهم السبب.

لم تكن حالُ ماري بأحسنَ من حالِ جون. فالأسئلة والأفكار المتضاربة جعلت ليلتها تلك ليلةً نابغية[8]. هل يرغب هنري حقًّا في التخلّي عنها بهذه السهولة؟ أم أنه يبغي امتحان صدق ارتباطها به؟ ألم تهجر هي أهلها ووطنها لتعيشَ معه؟ هل قصَّرت يوماً في دورها كزوجة؟ لا، لقد شهد هو نفسه بسيرتها كزوجة صالحة. قد تكون رغبتُه في الخَلفِ السببَ في ذلك، كي يتزوج بعدها منْ يأمل في أن تحقق له تلك الرغبة؟

[8] إذا حجب الأرق النومَ عن عين المحبِّ فشعر بطول الليل، قالوا: أمضى ليلة نابغية، نسبة إلى النابغة الذبياني في قوله:
كِليني لِهمٍّ يا أميمة ناصبِ *** وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ.

استمرّت على هذه الحال طوال الليل وما تلاه من ساعات النهار. أرادت أن تستوضحه، ولكنها خجلت أو خافت أن تجرح شعوره. فكرت في محادثة جون هاتفيًّا، ولكن أنوثتها حالت دون ذلك...

في المساء، عاد هنري من عمله، واستقبلته ماري كعادتها، وقد ألبست شفتيها ابتسامة أحسَّ هو أنها مصطنعة، إذ لم يرَ بِشْرَها يعمُّ قسماتِ وجهها كاملة كعادتها. ولكنه كتم هذا الشعور إلى أن جلسا لتناول شاي ما بعد العشاء كالمعتاد، حيث فاجأها بسؤالٍ، لم تكن تنتظره، قائلاً: هل اتصلَ بكِ جون هذا النهار؟

أجابت: كلاّ، لم يفعل.

قال: وأنتِ، ألم تحاولي بدورك مكالمته؟

قالت: لا لم أفعل.

قال: ولماذا؟

فقالت، بصوت يكسوه الانفعال: وهل تريدُ أنتَ حقًّا التخلص منّي؟ ولماذا؟ هل وقعتَ في حبِّ امرأةٍ غيري؟ أم أنك تفضِّلُ الخلفَ على العيشِ معي؟ أم.. أم...

أجابها، بهدوئه المعهود: اطمئنّي يا حبيبتي، فأنا لم يخطرْ ببالي، ولو للحظة واحدة، أيٌّ مما ذكرتِ. بل أقول لك بكلِّ صدق ومن دون أي غايةٍ أخرى، بأنّ جُلَّ ما أرومُه هو سعادتك أنت، وأنتِ فقط.

عندئذٍ ارتمت على صدره باكية، والدموع تنهمرُ من مقلتيها، وهي تردد بصوتٍ متقطِّعٍ: أرجوك اعذر ضعفي وتفكيري المشوش، وسامحني لأنني نسيتُ للحظةٍ سموَّ نفسكِ ورجاحة عقلك، وتلك الكلمات التي كنت دوماً تداوي بها يأسي أيام كنا بعد صديقين، إذ كنت تقول لي: لا بدَّ من أن يأتيَ ذلك اليومُ الذي يعيد لك سعادتك وهناءكِ...

فقاطعها، قائلاً: أعتقد أنه قد جاء، وهذا ما دعاني إلى النطق بما قلته لكما بالأمس.

ثم مسح دموعها براحتيه وطبع على جبينها قُبلةً، أحسّتْها قبلة أبٍ أو أخٍ أكبر. وتابع قائلا: إنّ عدم اتصال جون بكِ اليوم أكّدَ لي حسن أخلاقه، فهو لم يحاول استغلال كلامي، بل ترك الأمر لكِ وحدكِ. فأرجو أن تبادري أنتِ غداً الاتصال به لتلتقيا وتبحثا أمركما سوية ومن دون حسيبٍ أو رقيبٍ.

في الصباح، أدارت قرصَ الهاتف وطلبت من عاملة الفندق أن توصلها بجون. الذي لم يصدّقْ، في البدء، أن الصوت الذي سمعه يقول، "صباح الخير" هو فعلاً صوت ماري، ما جعله يرتبك قليلاً قبل أن يردَّ تحيتها. ثم قالت: هل لي أن ألقاكَ عصرَ هذا اليوم في حديقة "الهايد بارك"؟

أجاب: بكلِّ سرور.

في الساعة والركن من الحديقة، المتفق عليهما، التقيا. وبعد تبادل التحية، جلسا على أحد مقاعد الحديقة. فبادرها جون بالسؤال، قائلاً: لماذا اخترتِ أن يكون لقاؤنا في هذه

الحديقة لا في أحد المقاهي؟ ألتتجنبي أن يراكِ أحدُ أصدقائكما أنتِ وهنري؟

قالت: بل رغبت في أن نستذكر لقاآتنا الماضية في حديقة مدينتنا في الولايات المتحدة. أما زلت تذكرها؟

قال: بكلِّ تأكيد، فلم أنسها يومًا.

قالت: وماذا تذكر أيضًا من تلك الأيام؟

قال: أرجوكِ دعِ الماضي. فما مضى قد مضى.

فقالت، بصوت رقيق: أما زلت تُحبُّني؟

قال: أنتِ الآن امرأة متزوجة.

قالت: صدِّقني، لم أنسَ، وعلى رغم ذلك فما زلت أحبُّك. فأرجوكَ أجبني، أما زلت ترغبُ في تحقيق حلمنا القديم؟

قال، والغصّة تعصر حنجرته: أنا لم أتزوج.

قالت: أقسمُ لكَ بحبنا الطاهر، أنني لم أقبل الزواج بهنري إلاّ بعدما أكّدت لي القيادة العسكرية بألاّ أمل في عودتك. أمّا الآن فقد تغير الحالُ كليًا.

ثم قصّت عليه ما دار بينها وبين هنري بالأمس، وبأنه هو الذي طلب منها أن تلتقيه ليتخذا قرارهما فيما خصَّ مستقبلهما. ثمَّ أردفت قائلة: إنَّ ما سينتج عن لقائنا هذا سيحدّدُ مستقبلَ كلٍّ منا. وأؤكّد لك مسبقًا، بل وأقسم، أنّ جوابك أنت سيكون قراري أنا، والذي التزم هنري بتنفيذه.

فنظر إليها بعين المُحبِّ والغريقِ الذي لم يصدّق أن القدر قد بعث له بخشبة، إذا تمسكَ بها نجا، وإلاّ فمصيره الغرق المميت. وبعدما تأملها مليًا، انتصبَ واقفًا أمامها، فاتحًا ذراعيه، وهو يقول بأعلى صوته: من دون أدنى شكٍّ، لم أزل على حُبِّي لك، وأتمنى في كل لحظة ومن صميم فؤادي، أن يتحقق حلمنا. يا أحبّ الناس إليّ، يا من لم أحببْ غيركِ أبدًا.

وقفت ماري بدورها باكية، وارتمت بين ذراعيه وراحت تمرّغُ رأسها بصدره، وهي تقول: أحبُّك، أحبُّك، أحبُّك، يا حُبِّيَ الأول والأخير.

وغرقا في عناقٍ لم يشعُرا كم طال أمده. إلى أن رفعت ماري رأسها لتقول له: هيّا بنا لقد حان وقت العمل لتحقيق ما نصبو إليه، ولنذهبْ إلى هنري لنبلغه قرارنا.

لم يحتجْ الأمرُ إلى ما يزيد عن الأسبوع الواحد، لتبدأ بعده إجراآت طلاق ماري وهنري، تحضيراً لإتمام زواجها بجون، بعد مرور المدة القانونية.

وهكذا تحولَ هنري من زوجٍ إلى "عرَّاب" زواج صديقيه، ماري وجون. ولما صافح هذا "العراب" جونَ مباركًا ومهنّئًا، قال له جون: أكاد لا أصدق ما نحن فيه.

فأجابه هنري: إنه القدر، يا صديقي، الذي نقف، نحن البشر، عاجزين عن فهم ومعرفة كيف يُهيِّئُ السُّبُلَ والوسائلَ لتحقيقِ مشيئته.

وفي اليوم التالي لانتهاء معاملات عقد زواجهما، ودع ماري وجون صديقهما هنري والسعادة تملأ قلبيهما، ووجهتهما، بيروت، تلك المدينة التي كثيراً ما قرآ عنها وحلما بزيارتها.

أتيا عاصمة لبنان، لتمضية "شهر العسل". ولكنَّ أسبوعين في ربوعه كانا كافيين لأن يقعا في غرامه. فلبنان أجمل بكثيرٍ مما قرآ عنه. وهو يمتاز عن سويسرا بأن أهله يحبون الضيف ويكرمونه. ولا يشعر الأجنبي فيه بأنه غريبٌ عنهم أيًّا كان عرقه أو لسانه. إنه روضةٌ من رياض الجنة. فلمَ لا يعيشان فيه ما دامت الإقامة والعمل فيه ليسا صعبين؟

وهكذا نقل جون أعماله إلى لبنان واستقرّ الحبيبان فيه يتمتعان بحسن جوِّه وجمال طبيعته وبالظروف الجيدة للعمل والإقامة فيه.[8]

[8] وقد أكد لي الصديق إبرهيم، أنه التقاهما في مكتب نسيبه مالك أحمد صيداوي، صاحب مطبعة في منطقة الحمراء – بيروت، والذي روى له قصتهما بعد مغادرتهما مكتبه.

ابنة سليم[8]

زيارة المعارض التجارية من الأمور المهمَّة للتجار والصناعيين، يتعرفون فيها على أحدث الابتكارات والمنتوجات والآلات التي من شأنها تحسين وتطوير أعمالهم. ولا يشذُّ اللبنانيون في هذا عن نُظرائهم من البلدان الأخرى، ولا ننسى أن شهرتهم في الأسفار تعود إلى آلاف السنين.

ذات يومٍ من أوائل سبعينيات القرن العشرين، جاء وليد ص. نظيره سليم ع.، يسأله عما إذا كان ينوي السفر إلى ألمانيا لزيارة المعرض الذي سيفتتح بعد أيامٍ في مدينة هانبورغ، أحد أهم المدن الألمانية، والمخصص لأدوات وتجهيزات وآلات المطابع. إذ كان كلٌّ منهما يملك مطبعة

[8] عن قصّة من الواقع رواها لي الصديق إبرهيم قاسم إبرهيم، عن أحد أشخاصها، نسيبه مالك أحمد صيداوي صاحب مطبعة بيروت في منطقة الحمراء – بيروت. ولم أذكره باسمه بل استعضت عنه ب "وليد ص." فقط. (أنهيت كتابتها في 2015/6/30)

في بيروت، وقد اعتادا رفقة السفر سنويًا لزيارة هذا المعرض. وبالإضافة إلى كونهما من أبناء الحيِّ الواحد من بيروت فقد أصبحا أيضًا، منذ ما يزيد عن السنوات العشر، صديقين.

أبلغ سليم صديقه بأنه مرتبط بعقد يفرض وجوده الدائم في المطبعة حتى الانتهاء التام من تنفيذ وتسليم الأعمال في مدّةٍ لم يبقَ منها سوى شهرٌ واحد، وبالتالي يتعذّر عليه السفر هذا العام. وتمنى له سفراً آمنًا وموفقًا.

في الطائرة التي أقلته، التقى وليد بعضًا من أصحاب المطابع القاصدين الوجهة عينها، فاستعاض قليلاً برفقتهم عن وجود صديقه سليم.

في اليوم التالي لافتتاح المعرض، قصد صاحبنا جناح شركة سبق له التعامل معها فإذا باثنين ممن التقاهم في الطائرة، يستمعان إلى شرح مسؤول الجناح عن خصائص ومزايا إحدى أحدث آلات الطباعة التي صنعتها الشركة العارضة، فوقف معهم يستمع ويشارك بالاستفسار عن تلك

الآلة. وبينما هم كذلك جاءتهم فتاةٌ في أول العشرينيات من العمر، فأتبعت تحيتها بسؤالهم قائلةً: هل أنتم من لبنان؟

أجاب الثلاثة: نعم، نحن لبنانيون.

قالت: هل منكم من يعرفُ رجلاً من بيروت، اسمه سليم ع.؟

أجاب وليد: نعم وهو صديقي، ولولا اضطراره البقاء على رأس عمله في بيروت لكان الآن بيننا. فهل لي أن أعرف ما وراء سؤالك هذا؟

قالت: إنه والدي.

قال وليد: هل سمعتُ أنا جيدًا، قولك بأنه والدُكِ؟

قالت: نعم، إنه والدي.

قال: إن صداقتي له تعود إلى أكثر من السنوات العشر، وأنا أعرف أولاده جميعهم ولم أركِ يومًا بينهم، في أثناء أيٍّ من الزيارات العائلية التي نتبادلها باستمرار. كما لم

يحدثني مرة عنكِ. ثم ما دمت تدعين بأنه أبوكِ وبالتالي أنت لبنانيةً، فلماذا لا تخاطبينني بالعربية عوضاً عن الإنكليزية؟

قالت: أنا لم أعشْ في لبنان يوماً واحداً، ولا أفقه من العربية سوى كلمات معدودات فقط، ككلمة "مرهبا" (مرحباً).

عندئذٍ استأذن وليد الحاضرين ودعاها إلى تناول فنجانٍ من القهوة في مقهى المعرض، حيث جلس الاثنان إلى إحدى طاولاته وبيد كلٍّ منهما فنجانه. ثم قال وليد: أردت أن ننتبذ من رفيقيَّ هذا المكان، حفظاً لأسرار صديقي الشخصية، هذا إذا كان هو الشخص عينه الذي تقصدين لأنّ عائلته كثيرة العدد وقد يكون بين أبنائها بضعة أشخاصٍ يحملون الاسم نفسه. فهل لكِ أن تفصحي عما تبغين من ادعائكِ هذا؟

قالت: يا سيد ...

قال: وليد

قالت: تشرفنا، وانا "مونا". يا سيد وليد، ما أقوله ليس ادعاءً، بل هو حقيقة. ولكن ما دمت طرحت إمكان التشابه بالأسماء، فدعنا نتحقق الأمر. والدي اسمه سليم واسم والده "أبراهم" (إبرهيم)، ووالدته "مونا"، فإذا كانت هذه الأسماء لا تنطبق على حال صديقك فأرجو المعذرة. أما ما أبغيه فهو الإحساس فقط بحنان الأب، ما حُرمتُه منذ ولادتي.

قال: أجل، أعتقد أنك قد أصبتِ الهدف، في أنه هو الشخص الذي تبحثين عنه. فهل لكِ إذًا أن تشرحي الأمر بجلاء أكثر؟

قالت: كثيرًا ما سألت والدتي عمَّن يكون والدي، وكانت تكتفي دومًا بالقول: لم يحن الوقت بعد. ومنذ نحو السنة أصابها مرضٌ أجمع الأطباء على ألاّ شفاء لها منه، وأن أيامها أصبحت معدودات. وعندئذٍ أيقنت أن قد اقتربت ساعتها. فطلبت مني أن أقعد بقربها وقالت: يا ابنتي الحبيبة، لطالما سألتني عن أبيكِ وفي كل مرة كنت أجيبك

بأن الوقت لم يحِن، لأني كنت أخاف أن تذهبي للبحث عنه وتتركينني وحيدة إذ ليس لي ولدٌ ولا زوجٌ ولا أخٌ ولا حتى صديقٌ يؤنس وحدتي، فأنت كنتِ وما زلتِ دنياي، فاعذريني يا ابنتي، فقد يكون هذا من أنانية الأمومة. والآن، أرجو أن تصغي إلى ما أقول، وأن تحفظيه جيداً، فقد لا يسمح لي المرض أن أكرره ثانية، ولا تكتمي في نفسكِ أي سؤالٍ قد يجول في خاطرك لأنني منذ هذه الساعة وحتى آخر أيامي على استعداد لأن أجيبك على أيّ سؤالٍ تطرحينه، حتى لو اعتقدتِ أن لا أهمية له. ثم تابعت قائلة: إذا كان اسم العائلة الذي يظهر على أوراقك الرسمية هو اسم عائلتي، فهذا لا يعني أبداً أنك نتيجة علاقة غير شرعية، فأنتِ تعرفين جيداً كم أنا ملتزمة بتعاليم ديني وقد كنت كذلك منذ حداثتي. لقد تزوجنا أنا ووالدك بعقد رسميٍّ وموثقٍ حسب الأصول والقانون، ولكن ليس لدى السلطات الألمانية هنا بل في فلسطين. ووالدك لبنانيٌّ من بيروت واسمه سليم ع. واسم أمه "مونا"، وقد سميتك على اسمها. لقد تعارفنا في فلسطين، وكانت بعد تحت الانتداب

البريطاني. وكان هو يعمل في حقل الطباعة وكنت أنا أعمل في إحدى الشركات التجارية. ولكن بعد زواجنا بمدة وجيزة، وبالتحديد في شهر أيار من العام 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين فاستولى اليهود، فوراً، عليها وأعلنوها دولتهم تحت اسم "إسرائيل". عندئذٍ قررنا الرحيل عنها. ولكننا لم نتفق على وجهتنا. رغبتُ أنا في أن نأتي إلى ألمانيا بينما أراد هو العودة إلى لبنان. وأمام إصرار كلٍّ منا على رأيه افترقنا وذهب كلٌّ إلى حيث اختار. ومنذ ذلك اليوم انقطع كلُّ اتصالٍ بيننا فيما عدا رسالة واحدة وصلت إليّ منه ولم أجبْ عليها وما زلت أحتفظُ بها وسأعطيكِ إياها مع بعض اوراقٍ بالعربية قد تحتاجين إليها إذا شئتِ أن تبحثي عنه يوماً. وبعد وصولي إلى بلدي هذا بنحو الشهر تبين لي أنني حامل. فكتمت الأمر ولم أعلمه بذلك، على الرغم من أن عنوانه في لبنان كان واضحاً في تلك الرسالة، إذ كنت أخاف أن يحاول، بوسائله الخاصة، أن يفرضَ عليَّ العيش معه في بلده بحجة أنه لا يستطيع القيام على معيشتنا إلاّ هناك، خاصة أنه لم يكن يعرف

اللغة الألمانية. ثم أعطتني صورته مع هاتيك الأوراق، وأضافت بأنَّ ما أن يطلع عليها والدي فسيتأكد من بنوتي له. وبعدها صارت تجيب على أسئلتي حتى التافه منها. وأخبرتني عن دقائق كثيرة عنه وعن أمورٍ لا يعلم بها سواهما، إلى أن تُوفيت منذ ثلاثة أشهر وتركت في حياتي فراغًا لا يوصف.

فترحم وليد عليها، ثم قال: أرجو أولا أن تتقبلي تعازي بوفاتها، وأن توضحي لي كيف اخترتنا أنا ورفيقيَّ لتسألينا عن سليم.

قالت: إني أعمل بوظيفة إدارية في إحدى الشركات المشاركة في هذا المعرض، وقد أتيته اليوم في خطوتي الأولى للبحث عن والدي. وصدِّقني أنكم كنتم أول من أسأله. وما أن أجبتني بأنه صديقُك، كتمت عنكم إحساسي بالمفاجأة، وأيقنت أن القدر قد رسم ونفذ وحقق، وأنني على وشك أن أرى والدي.

فقال وليد: قبل سفري كلمني هاتفيًا لوداعي وتواعدنا أن أكلمه هذا المساء لأخبره عن الجديد في هذا المعرض، وتأكدي أنني سأعلمه بما دار بيني وبينك، وسأوافيك بالجواب غدًا. وسأنتظركِ هنا في هذا المقهى وفي مثل هذه الساعة.

وبعدما أكدت بأنها لن تتأخر دقيقة واحدة، افترقا وعاد وليد إلى التجول في المعرض. ولكن تلك المفاجأة أفقدته الرغبة في الاستمرار بالتجول وفضّل العودة إلى الفندق.

في الوقت المتفق عليه، طلب وليد من عاملة الهاتف، في الفندق، أن توصله بصديقه سليم في بيروت. وبعد تبادل التحية، سأله سليم عما رآه من حديثٍ في المعرض. فقال وليدٌ: دعنا الآن من المعرض إلى ما هو أهمّ، فقد فوجئت بأمر لم أكن أعلم عنه شيئًا. وأرجوك إجابتي: هل صحيحٌ أنك كنت تعيشُ في فلسطين قبل النكبة؟

أجاب سليم: أجل، وقد عدت إلى لبنان إثر اغتصابها. ولكن...

قال وليد: وهل كنت في ذلك الوقت متزوجاً؟

قال سليم: نعم، ولكن...

قال وليد: وهل كانت زوجتك من شقراوات ألمانيا واسمها هايكه؟

أجاب سليم: بربك قل لي هل التقيتها؟

قال وليد: لا يا صديقي، فهذا مستحيل لأنها للأسف قد توفيت منذ نحو الثلاثة أشهر،..

فقاطعه سليم قائلاً: بالله عليك ما وراء هذا الاستجواب؟ ومن أين لك هذه المعلومات؟ ارجوك أصدقني وأوضح ولا ترمِني في بحر الاضطراب.

أجاب وليد: لا تضطرب ولا تعجب لما يقدره الله. بالأمس، في أثناء زيارتي لأحد أجنحة المعرض، اعترضتني فتاةٌ حنطية اللون، لم يسبق لي أن رأيت مليحة جمعت حسن وجهها وجمال قدها، وسألتني عما إذا كنت لبنانياً، وما أن

أجبتها بالإيجاب، حتى بادرتني بسؤالٍ عما إذا كنت أعرف شخصاً من بيروت يُدعى سليم ع.. فجرى بيننا حديثٌ طويل خلاصته بأنها ليست ابنة هايكه فقط بل تدعي بأنك أنتَ أيضاً والدها وأن لديها ما يجعلك تُقِرُّ بأبوتك لها.

لم ينبس سليم بكلمة واحدة، بل غرق بصمت طويل جعل وليداً يعتقد أن الاتصال قد انقطع، ناداه، عبثًا، عدة مرات، وما أن همَّ أن يعيد السماعة إلى قاعدتها، أجابه سليم قائلاً: اعذرني يا صديقي، إنّ ما تقوله قد شلَّ تفكيري وأصبحت لا أميزُ بين الحلم والحقيقة.

ثم استدرك طالبًا من وليد أن يروي له ما قالت تلك الفتاة وبأدقِّ التفاصيل. وبعدما فرغ وليد من ذلك، قال له سليم: إنها ليست مفاجأة كبرى فقط بل الموضوع حساسٌ جدًّا، فأرجو أن تنتظر جوابي صباحًا وسأكلمك قبل مغادرتك الفندق، وإلى الغدِ إن شاء الله.

أقفل سليم الهاتف، ولكنه لم يغادر غرفته، ومكث غارقًا في بحرٍ من الأفكار، إلى أن انتشلته منه زوجته سميرة، عندما

دخلت عليه، والقلقُ بادٍ عليها، سائلة عما أخَّره عن العودة للانضمام إلى باقي أفراد العائلة الذين ينتظرونه في غرفة الجلوس منذ نحو الساعة. فخرج إليهم من معتكفه، والابتسامة المصطنعة تعلو شفتيه، وعاد إلى مقعده المعتاد صامتًا.

حدسُ المرأة نادرًا ما يخطئ، فقد أحسَّت سميرة أن أمرًا ما جعل زوجها مضطربًا. فخاطبته، بكلماتٍ مفعمة بما عهده فيها من الحبِّ والحنان، وقالت: أرجو الله ألاّ يكون وراء هذه المكالمة أمرٌ جلل.

لم يجب، بل نهض عن كرسيه وتوجه إلى جهاز التلفزيون وأوقفه عن البثِّ، ثم عاد إلى مقعده وقال: أرجو، يا أحبائي أن تسمعوني جيدًا. يا زوجتي الحبيبة، لقد مضى على زواجنا نحو العشرين عامًا، كنتِ لي فيها نعم الزوجُ والحبيبةُ والصديقة والرفيقة في السراء والضراء، كما كنتِ لأبنائنا الأحباء، نعم الأمُّ التي سهرت وربت أحسن تربية،

أرجو أن تُصدْقِيني القول، هل رأيتِ في سلوكي وأخلاقي يومًا ما كدّر عيشنا معًا؟

قالت: معاذ الله، إنّك خيرُ زوجٍ وخير أبٍ.

قال: وأنتم يا فلذات كبدي، إبرهيم وخالد، وسامر، يا أغلى كنوز الدنيا على قلبي، هل أحسّ أحدكم مني مرة غير عطف الأبِ؟ وهل تأخرتُ مرة عن القيام تُجاهكم بما هو ضمن استطاعتي وإمكاناتي؟

أجاب الثلاثة بصوتٍ واحد: حاشاك العيب، ونحن فخورون جدًّا بأنك والدنا.

فقال: لقد أخبرتك يا سميرتي، قبل زواجنا، بأنني كنت أعيشُ في فلسطين، وأنني كنت متزوجًا بألمانية وأننا لم نرزق بالخلف، وهذا ما سهل افتراقنا إلى الأبد، إثر إعلان ما يسمى بدولة إسرائيل. وقد كان الأمر بالنسبة لي قد أصبح في عالم النسيان، ولكن لقد أعلمني صديقي وليد، بمكالمته الهاتفية منذ قليل، بأن القدر جمعه بفتاة تدَّعي بأنها

ابنتي من ذلك الزواج، وأن أمها قد زودتها، قبل وفاتها بمدة وجيزة، بما يقنعني بذلك. ولكنني لم أتخذ أيّ موقف في هذا الأمر، ولن أتخذه، إلاّ بعد الرجوع إليكم. فهل تشورون بأن أتابع الأمر للتأكد من صحة ادعائها مهما كانت النتيجة؟ أم أن أضعَ حدًّا له بالنفي القاطع؟

المفاجأة أغرقت الجميع بالصمت، ولكنْ وحدها، تلك المرأة العاقلة الواعية، تركت مقعدها واقتربت من زوجها وضمّت رأسه بيديها إلى صدرها لتزيل عن نفسه كل اضطراب وتعيدَها إلى هدوئها وطمأنينتها. ثم قالت: يا زوجيَ الحبيب، أرجوك أن تتابع هذا الأمر حتى النهاية، فإذا كانت هذه الفتاة ابنتك فعلاً، فتأكد جيداً بأنني سأكون لها أمًّا، وأنّ أبناءنا الأبرار سيكونون لها نعم الأشقاء. وتذكّر كم تمنينا أن يرزقنا الله بأختٍ لهم. وحنان الأخت، كما تعلم، مكملٌ لحنان الأمّ في حياتها، وينوبُ عنه بعد مماتها. وإذا كانت أمّها قد كتمت عنك ما كان في رحمها يوم افترقتما، فأظنُّ جازمةً بأن إيمانك بالله وتمسُّكَكَ بتعاليم دينك، لن يسمحا لك بالتنكر لها وتركها لمصير مجهول.

نهض سليم عن كرسيه وضمَّ زوجته إلى صدره والدموع تملأُ عينيه، وقال لها، بصوتٍ يُقطِّعُه غليان ما كان يتفاعل في داخله، أنتِ كبيرة حقًّا، يا حبيبتي، بل أكبر بكثير مما كنت أومن. ثم لم تعد تسمح له تلك الغصة التي عصرت حنجرته، بأن ينطق بكلمة واحدة، لأنها ستتحول بكاءً، قد يُظهره ضعيفًا في أعين أبنائه الذين عهدوا فيه ذلك الرجل القوي قاهر الصّعاب.

لم يغمض له جفنٌ في تلك الليلة التي مضت عليه ببطءٍ شديد. وفي الصباح رفع سماعة الهاتف ليكلم صديقه وليدا حسبما وعده بالأمس. فقال له: أرجوك يا صديقي، عندما تأتيك تلك الفتاة، اذهبا معًا إلى أقرب هاتفٍ عموميٍّ ودعها تكلمني، ولكن لا تتركها. وسأبقى بدوري في المنزل، أنتظر ذلك. فلا رغبة لي اليوم في أن أذهب إلى المطبعة. ولك منّي جزيلُ الشكر.

لم يغادر سليم منزله واعتكف في غرفته ينتظر تلك المكالمة، والأفكار تتضارب في عقله. وعلى الرغم من أنّ

موعدها بعد الظهر، فلم يشعر بالميل إلى القيام بأيّ نشاط، بما فيه القراءة، هوايته المفضّلة. حتى جريدة الصباح التي اعتاد قراءتها منذ سنوات عديدة، لم يُلقِ عليها نظرة واحدة.

مضت الساعات، كأنها أيام، ولما قرب الموعد أخذ يلتقط سماعة الهاتف بسرعة فائقة، كلما سمع رنين جرسه، ليرجو المتكلم تأجيل المكالمة إلى موعد لاحق، فهو ينتظر مكالمة خارجية مهمةً جدًّا. إلى أن سمع صوت صديقه وليد، فقال له فوراً: هل هي بجانبك؟ ولما أجابه وليد بنعم، قال له: دعها تكلمني.

تناولت منى السماعة من زليد وقالت لسليم: كم أتحرَّقُ لرؤيتك يا أبي، فقد عشتُ دهراً من دون أبٍ. أرجوك دعني أراك.

فقال لها سليم: أرجوكِ أن تهدئي قليلا ودعيني أُجلي الأمر ببضعة أسئلة.

فقالت: أنا على أتم الاستعداد للإجابة عن أيِّ سؤالٍ ترى فيه ما يؤكّدُ كلامي وكلام أمّي التي لم تكذب يوماً في حياتها، ولذا كانت عيشتنا صعبةً جداً.

قال سليم: هذا صحيح، فهايكه من أصدق من عرفت من الناس.

وبعدما طرح عليها بضعة أسئلة عن أمورٍ شخصية جداً لا يعرفها سوى هو وهايكه، وجاءت أجوبتها مطابقة للواقع، قال: بقي عندي ثلاثة أسئلة.

فقال: في أيّ يومٍ رحلنا أنا ووالدتك عن فلسطين؟

قالت: لقد رحلت هي في الرابع والعشرين من شهر أيار من العام 1948، بحراً إلى ألمانيا، بينما قررت أنت الرحيل في اليوم التالي، براً باتجاه لبنان. وبرسالتك الوحيدة التي وصلت إليها منك بعد ذلك، أخبرتها عما واجهك في الطريق.

قال: ومتى تزوجت هي بعد وصولها إلى ألمانيا؟

قالت: معاذا الله، لم تتزوج غيرك في حياتها كلها، بل لم يكن لها أيُّ صديق لأنني كنت أنا كلَّ شيء في حياتها.

قال: وفي أيِّ يومٍ ولدتِ أنتِ؟

قالت: في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من العام 1949، ولدي جميع الأوراق اللازمة لإثبات هذا.

فقال: أشكر الله على نعَمِه التي أتمّها عليّ بأن أعادكِ إليَّ يا ابنتي الحبيبة، منى. ودعيني أكلم صديقي.

ولما سمعت كلامه هذا، صرخت قائلة: آه يا أبي. وناولت صديقَه السماعةَ، ودموع الفرح تملأ عينيها، وتصرخ باكية: لقد وجدت أبي... أجل، وجدته ولم تعد الأرضُ تسعني.

أخذ وليد السماعة، وإذا بسليم يقول له: ألفُ شكرٍ لك يا صديقي العزيز على هذه الهدية الكنز، وأرجوك أن تُكمِل معروفك، ولا ترجع إلى بيروت، مهما كلّفك الأمر، إلاّ وأنت ممسكٌ بيدها، نعم إنها من صلُبي، إنها ابنتي منى.

وضع وليد سماعة الهاتف واتجه إلى منى قائلاً: لقد تبدل كلُّ شيء الآن، فقد أصبحتِ في عهدتي وسأكون في مقام والدكِ، سليم، إلى أن تتسلمَكِ ذراعاه ويضمَّكِ إلى صدره. وعلينا أن نبدأ التحضير لتكوني رفيقتي في العودة إلى بيروت. فكم يلزمكِ من الوقت لتصبحي جاهزة للانتقال إلى العيش نهائيًّا في كنف والدكِ؟

نظرت إليه بتعجّب سائلة: أقلتَ حقًّا نهائيًّا؟ وماذا سأفعل هناك؟ وكيف أعيش؟

قال: يا بنيتي، من عاداتنا، نحن الشرقيين، أن تبقى الفتاة في منزل والدها، ويقوم هو على عيشها، إلى أن تتزوج، حتى لو دخلت سوق العمل. والذكور أيضًا لا يترك واحدهم منزل والده إلا بعدما يتزوج ويصبح له منزله الخاص، أو إذا سافر للعمل في الخارج. فعليكِ أن تختاري بين البقاء هنا تشقَيْن وحيدة للحصول على لقمة العيش، أو أن تعيشي مرفّهةً في ظلِّ والدٍ يرعى شؤونك وإخوةٍ يملؤون حياتك.

قالت: أتقول إن لي إخوة أيضاً؟ وهل متأكدٌ من أنهم سيتقبلونني بينهم؟ إنّي خائفة حقًّا ولست أدري ماذا أقرّر. فلم أفكر في مثل هذا الأمر أبدًا، وجُلُّ ما كنت أسعى إليه هو أن أعرف والدي والتقيه وأشعرَ بدفء حنانٍ لم أذق طعمه يوماً.

قال: أنا أعرف سليما وعائلته تمام المعرفة، هم من أطيب الناس وأحسنهم أخلاقًا، يحبون الخير ويكرهون الشر. وكلّي ثِقَة بأنهم سيُنْسُونك كل لحظة شقاء مررت بها منذ ولادتك، وأن زوجة أبيكِ ستكون لكِ أمّا بكلِّ ما للكلمة من معنًى. والآن دعينا من الكلام ولنبدأ العمل. فسنذهب أولاً إلى مكاتب الشركة حيث تعملين لتتقدمي بكتاب استقالتك. ثم بعدها إلى شركة الطيران لشراء بطاقة للسفر فور انتهاء أيام المعرض. ولكن أخبريني أولاً: هل أنتِ مالكة للمسكن الذي تقيمين فيه؟ أم مستأجرة؟

قالت: لم يكن راتب والدتي، من عملها كسكرتيرة في إحدى الشركات، ليمكنها من شراء غرفةٍ واحدة، لأنّ كلفة

معيشتنا ودراستي كانت تستهلكه بالكامل. ولم يكن قد مضى على تخرّجي في الجامعة سوى ما يزيد قليلاً عن السنة الواحدة، عندما أصيبت بذاك المرض الذي قضى عليها.

قال: رحمة الله عليها. إذًا سنقوم سوية، وبما تبقى من هذا النهار، بتوضيب ما ترغبين الاحتفاظ به من موجودات مسكنك ومقتنياتك الخاصة، لتسليمه إلى من يتولى شحنها إلى بيروت. وما تبقى تهبينه لمن ترينه بحاجة إليه، ثم نعيد المفتاح إلى المالك. ولنذهب فوراً إلى الفندق لأحجز لكِ غرفة تقيمين فيها حتى يوم سفرنا. وستلازمينني رفيقةً ومساعدةً كي أُكمل ما أتيتُ لأجله. وقد نتمكن، أيضًا سويةً، من البحث عن بعض ما تحتاجه مطبعة والدك، وهي من أهمّ المطابع في بيروت.

سار كلُّ شيءٍ كما رسم وليد. ومع انتهاء آخر أيام المعرض كانا جاهزين للسفر، وأعلم صديقه سليما بموعد وصولهما إلى مطار بيروت.

ولما خرجا من قاعة الوصول، وقع نظر منى على مشهدٍ لم تألفه من قبل. أربعة رجالٍ وامرأة يحمل كلٌّ منهم طاقة ورود يختلف لونها عن الأخرى. فقال لها وليد: هؤلاء هم أفرادُ عائلتك. فاتجهت فوراً إلى كبيرهم، وارتمت بين ذراعيه وهي تقول: أخيراً ها أنا ذا بين يديك يا أبي. وبعد عناقٍ طويلٍ، طبع على جبينها قبلةً لم تشعر يوماً بألذَّ من دفئها وحنانها. ثم قدم لها أفرادَ العائلة بادئًا بزوجته سميرة، التي فتحت لها ذراعيها وضمتها بحنانٍ قائلة: لقد رجونا الله كثيراً أن يرزقنا بزهرةٍ تزين عائلتنا، وها قد استجاب ورزقنا بك. والآن أرجوه أن يمكنني من أن أكون لك أُمًّا تعوضك بعضَ الحنان الذي أفقدك إياه وفاة والدتك، رحمة الله عليها.

مرّغت منى رأسها بصدر هذه الأمّ الجديدة، والدموع تملأُ مقلتيها، وقالت: سأكون سعيدة جدًّا، وسأبذل جهدي لأكون لك ولوالدي نعم الابنة، ولأخوتي نعم الشقيقة.

وبعدما عانقت إخوتها فرداً فرداً، توجهت بالكلام إلى وليد: قائلة: يا عمي وليد، إنني مدينةٌ لك بحياتي الجديدة هذه. وتبقى كلمات الشكرِ التي ينطق بها اللسان، عاجزة عن التعبير عما لك في قلبي.

فقال وليد: يا عزيزتي منى، إن لم أكن أنا لكان غيري، هذا من عجائب القدر، فلا أحد يعلم كيف يهيّئ السبل ويدبر الأمور لتحقيق مشيئته.

وهكذا عاشت منى، سعيدة في كنفِ عائلتها، إلى أن تزوجت وأسست مع زوجها عائلة جديدة في لبنان الذي عشقت ترابه وسماءه.

غربة شفيق[8]

على أثر أحداث القرن التاسع عشر، بدأ اللبنانيون بهجرة وطنهم سواء طلبًا للحرية أم سعيًا وراء الرزق. ثم زادت الحربان العالميتان حجم هذه الهجرة. ومع الأيام أخذت أرض وطنهم، تضيق بهم، فانطلق كثير من شبابهم للبحث عن العمل في الخارج، معللين النفس بجمع ثروة تمكنهم من العودة السريعة إلى بلدهم الذي يفضلون العيش فيه على أي بلدٍ آخر. فانتشروا في معظم اقطار العالم. وأصبح لبنان مُصَدِّرًا للشباب، من جميع المهارات والمستويات العلمية والفنية والفكرية...

[8] عن قصة من واقع الحياة، رواها لي الصديق إبرهيم قاسم إبرهيم، عن أحد أبطالها، نسيبه مالك أحمد صيداوي صاحب مطبعة بيروت في منطقة الحمراء – بيروت. (أنهيت كتابتها في 2015/7/19).

كان شفيق، لمَّا يكمل بعد العشرين من العمر، يوم دخل سوق العمل، في أوائل ستينيّات القرن الماضي، متسلحاً بشهادة البكالوريا (الثانوية العامة)، إذ لم تمكنه حال والده المادية من الانتساب إلى إحدى الجامعات اللبنانية. هو ابن إحدى العائلات البيروتية المتوسطة الحال، وسيمٌ بهيُّ الطلعة، تميلُ بشرته إلى السُّمرة. وكان طموحه دوماً يدفعه إلى السعي لما هو أفضل. كثيراً ما كان يسمع من أترابه أنّ في الدول الأوروبية متسعاً للشباب الراغبين في العمل، وخاصة في ألمانيا. أخذ هذا الأمر يشغل تفكيره، ليلاً ونهاراً، وراح يتحسس أخبار وأحوال أولئك الشباب الذين قصدوها، ممن عرف من أترابهم في لبنان.

وعلى الرغم من أنَّ اللغة الألمانيةَ قليلة الانتشار في لبنان، فإنَّ حُبَّ اللبنانيِّين تعلُّم اللغات، وإتقانَ غالبيتهم إحدى أو كِلتا اللغتين الفرنسية والإنكليزية، يسهلان عليهم العيش في إيٍّ من قارّات العالم الخمس.

قرّر شفيق أن يغادر إلى ألمانيا ممنّيًا النفس في ان يلتقط إحدى فرص العمل التي تصوَّر أنها بانتظاره فور وصوله إلى أراضيها. وبعدما أقنع أهله بصواب رأيه، ودّعهم مغادراً بيروت ليحطَّ الرحال في فرانكفورت، أهمّ المدنِ الاقتصادية الألمانية، ورائدتها في التجارة والصناعة، وفي جيبه كمية من النقود ادَّخرها من عمله في بضع سنين. دخل البلاد "بتأشيرة سياحية"، إذ كان يومها، سهلاً جدًّا على اللبنانيّ الحصولُ على مثل هذه "التأشيرة" من سفارات غالبية دول العالم، لمجرّدِ إبرازه جواز سفرٍ لا تقلُّ مدة صلاحيته عن الأشهر الستة.

لم تكن وسائل الاتصال متوفرة كحالها في أيامنا هذه، بل كانت تقتصر على الرسائل البريدية والبرقيات والهاتف. ولكن أولاها كانت الأيسرَ والأقلَّ كلفة.

بعد بلوغه مقصده، لم يبخل شفيقٌ على أهله بالرسائل الأسبوعية، يوجهها إلى والده، يوسف، في مركز عمله، ليطمئنهم فيها عن حسن ما خطَّط له. وكان ذاك الأبُ

الحنون ينتظر بفارغ الصبر مواعيد تلك الرسائل. وكلما تسلّمَ إحداها كانت الدموع تترقرقُ في عينيه ولسانه ينطق بالأدعية لابنه بالتوفيق، مع كلِّ مقطعٍ يقرأه منها. وإذا ما انقضت ساعات العمل يسارع في العودة إلى زوجته، يُسرى، التي كانت، بدورها، تنتظر قدومه لتتناول الرسالة، فتضمها إلى صدرها، ثم تضعها أمام أنفها لتشمَّ منها رائحة ابنها ثمّ تقبلها مراتٍ عدة قبل البدء بقراءتها، وكلما قرأت جملة منها كانت تختلط كلمات الحمد والشكر لربها بالأدعية لابنها شفيق بالسلامة والتوفيق في كلِّ خطاه، والدموع تسيل من مقلتيها. ويأخذُ، بعدها، كلٌّ منهما ورقة يخطّ عليها جوابه المليءَ بعبارات الحبِّ والحنان والدعاء لابنه في غربته.

ولكن بعد نحو الأشهر الثلاثة من سفره، انقطعت رسائل شفيق فجأة. وعبثًا انتظر الوالدان أجوبته على رسائلهما أولاً، ثم على البرقيات التي أرسلاها على عنوان آخر رسالة وصلتهما منه. وبدأت معاناة الأبوين خوفًا على مصير ابنهما البكر. وما زاد في خوفهما أن تلك البرقيات

كانت تُعاد إليهما "لعدم وجود المرسل إليه في ذلك العنوان".

لم يترك الأبُ المسكين وسيلة أو مرجعًا للسؤال عنه، من وزارة الخارجية إلى شركة الطيران الوطنية ثم سفارة ألمانيا في بيروت. ولم ينسَ سؤال من يعرف من أتراب ابنه، راجيًا مساعدته في معرفة مصيره. ولكن جميع محاولاته كانت تبوء دومًا بالفشل. لقد اختفى شفيق، ولا أحد يعرف عنه شيئًا.

عمَّ الخبر جميع أصدقائه ومعارفه، وراح كلٌّ منهم يحاول بدوره المساهمة في البحث. وكان من بين أصدقاء يوسف رجلٌ يُدعى مالكًا، يملك مطبعة في بيروت وكان يُعرف عنه حبُّه لعمل الخير والأيادي البيضِ، كما كانت تربطه صداقاتٌ مع أناسٍ كثيرين مختلفي المقامات والمراكز وأنواع العمل. ولمّا رأى الحال التي وصل إليها صديقه، يوسف، تملّكه إحساسٌ بواجب البحث عن شفيق كما لو كان ابنه. فراح بدوره يرجو أصدقاءه المساعدة في هذا

الأمر. وكان من بين أصدقاء مالك رجلٌ لا يقلُّ شهامة عنه، يُدعى رمزي، كان يملك، في بيروت، مكتبًا للسفر والسياحة وله علاقات في كثير من الدول الأوروبية، فسأله مالك إن كان بوسعه مساعدة ذلك الأب الحزين. فأجابه رمزي بأنه مسافرٌ برحلة عملٍ إلى ألمانيا لمدة أسبوع، ووعده في أن يبذل أقصى جُهده لذلك. فزوده مالك بصورة شمسية لشفيق وبمعلومات قد تساعده في مهمته.

بعد يومين غادر رمزي بيروت إلى فرانكفورت. وكان أمله الوحيد للعثور على شفيق هو في الرجوع الى سجلاّت القنصلية اللبنانية في تلك المدينة أو من السفارة في بون، عاصمة ألمانيا في ذلك الزمن. وبعدما أنهى عمله في اليوم التالي لوصوله قصد تلك القنصلية، ولكن الموظف المختصّ لم يجد في سجلاتها اسم شفيق أو ما قد يساعد رمزي في مهمته، خاصة أن شفيقًا دخل ألمانيا سائحًا، والسائح ليس ملزمًا بالتسجيل لديهم. فشكر له رمزي حسن تعاونه وغادر القنصلية شاعرًا بأن الطريق قد سُدّت أمامه، فأنّى له أن يعثر على إنسانٍ لا يعرف عنه شيئًا، في مدينة

يعيش فيها الملايين من البشر؟ وهل يختلف حاله عمن يبحث عن "إبرة في كومِ قشٍّ"؟

ولكن في اليوم التالي لمعت في مخيلته فكرة من الصعب أن تخطر ببالٍ. فتوجّه فوراً إلى صديقه عامر، الذي يقيم منذ زمن بعيد في تلك المدينة ويعرف الكثير عنها وعن اللبنانيين المقيمين فيها. بعد تبادل التحيات، عرض رمزي عليه صورة شفيق سائلاً عما إذا كان رآه أو عرفه. ولما أجابه عامر بالنفي، طلب منه أن يدُلّه على المكان أو الأمكنة التي يجتمع فيها أبناء البلاد العربية عامة ولبنان خاصة. فزوده عامر بعناوين عدة مقاهٍ وفي أماكن متفرّقة من المدينة. فغادره رمزي شاكراً وتوجه إلى أقرب تلك المقاهي. حاول النظر في وجوه روادها لعله يجد بينهم ضالته. ولكن صغر حجم الصورة التي بحوزته جعلها قليلة الفائدة فهي لا توضح معالم وجه شفيق بقدرٍ يمكِّنُه من التعرف عليه عن بُعد أو من دون التفرُّسِ جيداً في وجه كلٍّ من أولئك الرواد، وهذا ما قد يسبب له حرجاً. فراح يذرع المقهى طولاً وعرضاً وهو ينادي بصوتٍ مرتفعٍ

قليلاً ومردّدًا: "شفيق"، "شفيق"، "شفيق"... حتى كادَ يُخيَّلُ لمن سمعه بأنه مجنونٌ. لم يجبهُ أحدٌ في ذلك المقهى، ولكنه لم ييأس. وفي اليوم التالي قصدَ مقهًى آخر مكررًا المشهد نفسه، والنتيجة كانت أيضًا سلبية. وهكذا حتى زيارته آخر تلك المقاهي في اليوم السابق لموعد عودته إلى بيروت، وكان على وشك أن يفقد الأمل كلّيًا. وهنا جاءت المفاجأة إذ أجابه أحدُهم قائلاً: نعم أنا شفيق. تجمّد رمزي في مكانه، وكأنّ رجليه قد تسمّرتا بالأرض مما لم يكن يتوقعه، فأخذَ ينظر إلى وجه شفيق ثم إلى الصورة ويعيد التفرُّسَ مرّةً بعد مرّةٍ، تقوله لا يصدِّقُ عينيه، هل هذا هو حقًّا شفيق؟ أم شبيهه؟ وشفيقٌ هذا يتملّكه العجب من أمر ذاك الرجل، من هو؟ وماذا يريد منه؟ ولماذا هذه النظرات الغريبة؟ صمت الاثنان معًا لثوانٍ بطيئة التوالي كأنها ساعاتٌ، إلى أن قطعه شفيقٌ قائلاً: ماذا تريد أيها السيد؟ فأنت تتفحص معالم وجهي بطريقة غريبة، ولو لم تكن تتكلم العربية لظننتك شرطيا يلاحقني؟

فأجابه رمزي قائلاً: اطمئنْ فأنا لا أريد بك شراًّ أبداً، بل أنا ساعٍ بالخير. أنت من بيروت واسمك شفيق واسم والدك يوسف ووالدتك يُسرى، وقد أتيت إلى هذه المدينة منذ نحو الأربعة أشهر، وهذه صورتك أليس هذا أنتَ؟

نظر شفيق إلى الصورة وقال: بلى. ولكن أكرر سؤالي عما تريدُ مني؟

قال رمزي: للمرة الثانية أُطمئِنُك بأنني لا أريد بك أيَّ سوء.

ثم أخبره عن مهمته وعما جرى له في أثناء بحثه عنه. عندئذٍ ارتمى الشاب على كتف محدِّثه، ثم على صدره، وراح يقبله وهو يشهق بالبكاء، لقد عاد به الزمن إلى تلك القبل التي ودَّعَ بها أباه. وعبقت في أنفه من ثياب رمزي رائحة الأبوة وشوارع بيروت التي افتقدها. لقد اشتاق كثيراً لحضن أمّه وحنانها ولبراءة شقيقه الصغير، سمير، ومحبة شقيقته، سوسن.

ربّتَ رمزي على كتفيه، وقال: لا بأس عليك، وهيا بنا الآن لنطمئن والديك أولاً ثم تُسمعني قصتك.

استقلاّ أول سيارة أجرة مرت بهما، وفور وصولهما إلى غرفته في الفندق، وكان الوقت عصراً، طلب رمزي من عاملة الهاتف أن توصله بصديقه مالك في بيروت. وفور سماعه صوت صديقه، قال: أبشر يا مالكُ، لقد وجدتُ شفيق ابن صديقك يوسف.

قال مالك: أحقًّا تقول؟ أكاد لا أُصدِّق.

قال رمزي: ها هو بقربي، أتريد أن تكلمه؟

قال مالك: بالتأكيد، رجاء دعه يكلمني.

وضع شفيق السماعة على أذنه وما أن سمع صوت مالك، حتى قال له: آه يا "عمّو" مالك، كم اشتقتُ إليك وإلى والديَّ وإلى شوارع بيروت وحاراتها.

فقال مالك: لا عليك يا بني والحمد لله الذي أعادك لنا سالماً. وهل لي أن أكلم السيد رمزي؟

تناول رمزي السماعة، فبادره مالك بالقول: لست أدري كيف أشكر لك معروفك هذا فقد أنقذت والداً من الهلاك...

فقاطعه رمزي قائلاً: دعنا الآن من المجاملة وأرسل من يطمئن يوسف وعائلته. وإذا أراد سماع صوت ابنه فسأُبقيه لنتناول العشاء سوية.

فقال مالك: انتظرني دقائق معدوداتٍ، فسأُبعث من يلحق به فوراً، لقد غادرني منذ أقلّ من عشر دقائق.

ذهب الرسول يعدو خلف يوسف، فرآه من بعيد يمشي الهوينى حاني الظهر كمن جاوز الثمانين على الرغم من أنه لم يكن بعد قد ناهز الخمسين، ولما أدركه قال له: السيد مالك يريدك أن تعود إليه فوراً ولأمر هام. فسأله يوسف: وهل تعرف السبب؟ أجاب الرسول بالنفي.

دخل يوسف مكتب مالكٍ، والخوف يملأ حواسه من سماع خبرٍ غير سارٍّ عن ولده. فبادره مالكٌ قائلاً: فليطمئنَّ قلبك يا يوسف فشفيق حيٌّ يرزق وهو بألف خير. لم تعد رجلا يوسف تحملانه من وقع المفاجأة، فارتمى على أقرب كرسيٍّ، وهو يقول: بالله عليك يا صديقي هل ما تقوله صحيحٌ أم أنّك تريد أن تخفِّفَ من همّي؟ أرجوك لا تتلاعب بأعصابي. فما فيَّ يكفيني...

فقاطعه مالك قائلا: هل فقدت ثقتك بي يا صديقي؟ انتظر فسأسمعك صوته حالاً.

رنَّ جرس الهاتف في غرفة رمزي، فجاءه صوت مالك يقول: أما زال شفيقٌ عندك؟

فقال رمزي: أجل وإليكَهُ. ثم أعطى شفيقًا السماعة. وبدوره أعطى مالك السماعة ليوسف.

قال الولد لأبيه: آه يا أبتِ، لقد اشتقت إليك وإلى أمِّي وأختي وأخي. ثم شرق بالدمع وغصّت حنجرته.

كادَ يوسفُ أن يغرقَ في غيبوبة لولا أن تداركه مالك بكوب من الماء البارد، أعاده إلى الوعي. ولكنه لم يزل غير مصدقٍ أهي حقيقة أم حلم؟ ويعود إلى سماعة الهاتف ويخاطب ابنه مجدداً سائلاً: هل أنت حقًّا ابني شفيق؟

فيجيب شفيق، وقد هدأ قليلا: أجل يا أبتِ أنا شفيق ابنك البكر الذي خذلك فسامحني.

فيقول يوسف: الله المسامح يا بني. أخبرني هل أنت بصحة جيدة؟

فيجيب شفيق: الحمد لله يا أبي، صحتي جيدة. وإليك منِّي وعدٌ بألاّ أقطع صلتي بكم ما حييت. والشكر لهذا الرجل الكريم السيد رمزي الذي أعادني إلى رُشدي.

ولما لم تعد الغصّة في الحنجرة تسمح له بمواصلة الكلام ثانية، أعطى السماعة لرمزي. فخاطب هذا الأخير يوسفَ قائلاً: اطمئنّ يا سيد يوسف فابنك بخير وسأوافيك بكلِّ أخباره فور عودتي إلى بيروت.

لم يعد الكلام يسعف يوسف لتقديم الشكر لصديقه مالك، فقام من مقعده واقترب منه وانحنى على يده محاولاً تقبيلها، ولكن مالكًا منعه ثم رفعه إليه وضمه إلى صدره، قائلاً: أنت يا يوسف صديقي وأخي، وهل يبقي للأخوِّة معنى إذا تأخر الأخ عن إغاثة أخيه؟ قمْ واذهب إلى عائلتك وبرِّدْ قلوبهم، وليحمدوا الله على نعمه، فشفيقٌ بألف خير.

لقد عاد الابن الضال بعدما يئس الجميع من عودته، بل اعتقدوا أنه فارقهم إلى الحياة الآخرة.

ذهب يوسفُ مسرعًا إلى منزله، وقد استردَّ ظهره استقامته السابقة، فدخله مناديًا زوجته، والسرور يملأ جوارحه، وهو يقول: أبشري يا يُسري، شفيقٌ لم يمت بل هو حيٌّ يرزق وقد تحادثنا منذ قليل.

هُرعت يُسرى على صوت زوجها، ولما سمعت قوله وقفت فاغرةً فاها مذعورة، وهي تقول في سرِّها: لقد جُنَّ الرجل، وا أسفي عليك يا يوسفَ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. ألا يكفيني ضياعُ شفيق؟

نظر يوسف إليها، وكأنه قرأ في عينيها ما تُسِرُّه في صدرها، وقال: لا يا حبيبتي يسرى لم أُجنّ وأنا بكامل قُوايَ العقلية. أجل لقد سمعت صوته وسمع هو صوتي هاتفيًا وهو بألف خير، والحمد والشكر لله.

لم تعد يسرى تتمالك نفسها من هذه المفاجأة السارة، وكادت تقعُ أرضًا لو لم يتداركْها زوجها، ثمّ يأخذها بين ذراعيه ليُهدّئ روعها. وما أن استعادت قُواها حتى أمطرته بوابلٍ من الأسئلة: هل حقًّا ما تقول أم هو حلمٌ؟ ماذا قال لك؟ أهو بصحة جيدة؟ بالله عليك أعدْ على مسمعي ما قاله لك.

وبعدما أكّد لها بأنها الحقيقة، روى لها كل ما حصل بالتفصيل وطمأنها وطمأن ابنته سوسن وابنه الصغير سميرا، اللذين استدعاهما صوتا أبويهما، فعمَّ البشرُ والسرور جميع أركان وزوايا البيت وأهله.

أما رمزي، فبعدما انتهى من حديثه مع يوسف، التفت إلى شفيقٍ قائلاً: الآن أخبرني، ماذا دعاك كي تنقطع عن مراسلة والديك؟

فقال شفيقٌ: سأنبئُك بتفصيل ما حدث معي منذ اليوم الأول لوصولي إلى هذا البلد. لقد زودني أحدهم، في بيروت، باسم وعنوان أحد فنادق الدرجة الثالثة، مكثت فيه أسبوعًا واحدًا، انتقلت بعده إلى غرفة مفروشة استأجرتها في أحد الأحياء الشعبية أرشدني إليها شابٌّ عربيٌّ التقيته في ذلك الفندق. بحثتُ كثيرًا عن عملٍ يكفيني العوز. فكمية المال التي تمكنت من ادخارها قبل مجيئي، لم تكن لتكفي بدل إيجار الغرفة لأكثر من شهرين. حاولت العمل في المطاعم والمقاهي ومحطات المحروقات ومغاسل السيارات، ولكنّ عدم حيازتي الإذن القانوني بالإقامة وعدم إتقاني الألمانية جعلا من المستحيل عليّ أن أستمرّ في أيٍّ منها لأكثر من يومين أو ثلاثة. وكان دومًا ذلك المقهى ملاذي الأخير، أسوة بكثيرين غيري من الشباب الذين غرَّتهم الهجرة إلى هذا البلد، معلِّلين أنفسهم بالحصول الفوري على عملٍ

يمكنهم من عيشةٍ أفضل مما كانوا عليها في بلادهم. وفي أحد الأيام، وكنت وحيداً، لفتت نظري فتاةٌ شقراء، حسنة الوجه جميلة القد، كانت تجلس إلى طاولةٍ في المقهى، قريبة من طاولتي، وكانت عيناها لا تنفكُّ عن النظر إليَّ. فتبادلنا الابتسام ثم تعارفنا وتحادثنا طويلا، ثم تكررت لقاآتنا في ذلك المقهى. اسمها "ساندرا" ولم تكن مثلي من رواد المقهى، بل كانت تقوم بدراسةٍ لإحدى المؤسسات حول الشباب الذين يدخلون ألمانيا، بقصد العمل، إمّا بطريقة غير شرعية أو بتأشيرة "سياحة"، ليصبحوا متسكعين أو مشردين. وبعد فترة وجيزة أصبحنا صديقين، خاصَّةً أنها كانت تتقن الإنكليزية، وكانت من قلائل الألمان الذين لا يرفضون التكلُّم بغير لغتهم. وبعدما اطّلعتْ على أحوالي، عرضَتْ عليَّ أن أنتقل بالسكن إلى شقتها التي تعيشُ فيها وحيدة، فتكون لي غرفة خاصّة. وأعفتني من بدل الإجار إلى أن أجد العمل الذي أنشده. لم يكن لي خيارٌ آخر، فالعرضُ مُغرٍ بالنسبة لما كنت فيه، وإلاَّ فسأصبح، بين عشية وضحاها، واحداً من أولئك المشردين الذين

ينامون في الشوارع والحدائق العامّة. كما أن عنادي وعنفواني منعاني من العودة إلى أهلي خاليَ الوفاض، أجُرّ أذيال الخيبة. ولكنَّ تمسُّكي بالعادات والتقاليد، وخجلي من أن يقالَ، إنّي رضيتُ أن أسكن مع فتاة غريبة وعلى نفقتها، جعلاني أرتكب الخطأ الكبير بحقِّ والديَّ، عندما رأيت أن أخفي عنهما الخبر مؤقتًا ريثما يصلحُ حالي. فرجوت أصحاب الغرفة، التي كنت أقطنها، أن يحتفظوا لي بما قد يأتيني من الرسائل. فصرت أذهب إليهم أسبوعيا لتسلم الرسائل، ولما أجيب عليها لم أكن أذكر لوالديَّ عن تبديل عنواني. سارت الأمور بشكل طبيعي لبضعة أسابيع، وبعدها صارت أجوبتهم: أن، ليس لي أي رسالة. تكرر هذا نحو الشهر إلى أن قالوا لي بأن عليّ أن أتدبر أمري لأن في ذلك مخالفةً للقانون.

لم يطل الأمر كثيراً، بعد انتقالي إلى شقتها، حتى عرضت عليَّ ساندرا الزواج، فقبلتُ من دون تردد، لاقتناعي بأن ذلك سيضمن لي الإقامة القانونية، وبالتالي إتاحة الفرص أمامي للحصول على عمل مناسب، كما قد أحصل بعدها

على الجنسية الألمانية. ولكنَّ خوفي من ألاّ يرضى والدايَ عن زواجي هذا، جعلني أخفي عنهما أمره، ولم تكن بعد الرسائل بيننا قد توقفت. ولكن موقف أصحاب سكني السابق، وعدم تمكني من إيجاد عنوانٍ بديل، تسببا بانقطاعي عن مراسلتهما، وفي نيَّتي أن يكون ذلك مؤقتًا، وكان هذا ثاني أكبر أخطائي، بعد هجرتي بلدي بطريقة غير مدروسة، ونسيت أنّ ذلك من الكبائر عند الله تعالى.

وحين عصرت الحسرة صدره وخنقت صوته توقف شفيقٌ عن الكلام. فبادره عندئذٍ رمزي قائلاً: لا بأس عليك ولا تيأس واهدأ، فإصلاح أخطائك هذه ليس مستحيلاً. ولكن قُلْ لي: ماذا تنوي أن تفعل؟ أتريد البقاء هنا أم العودة إلى لبنان؟

قال: بل أُفضِّلُ البقاء هنا على العودة خائبًا.

فقال رمزي: أصدقني القول: هل أنت سعيد بزواجك؟

قال شفيق: أجل، وعلى الرغم من أن قراري كان، في البدء، منطلقًا من مصلحة خاصَّة، فنحن اليوم متحابين ومتفاهمين، وكلٌّ منا يحترم الآخر، وساندرا فتاةٌ محافظة تفهم معنى العائلة بما يُشبهُ، تقريبًا، مفهومنا نحن. كما أنها ترغب في تعلم العربية، وقد أصبحت تعرف عدةَ كلمات وعبارات. فأرجو الله أن يكون زواجُنا مباركًا وموفقًا مدى العمر.

فقال رمزي: حسنًا، فهذه حياتك وأنت حرٌّ فيما تختار. أما عن والديك فاترك الأمر لي ولصديقنا مالك، واطمئن لأني متأكدٌ من أن المياه ستعود إلى مجاريها، أو أحسن مما كانت. ولكن لا تقطع صلتك بهما أبدًا ومهما حصل.

وبعدما تناولا العشاء سوية، زوده رمزي بعدد من الأسماء والعناوين لأصدقاء له قد يساعدونه في الحصول على عمل. فأخذها شفيق قائلاً: إن لساني يعجز عن التعبير عن شكري وامتناني لك، لقد غمرتني بأفضالك ولا أعرف أنَّى لي أن أردّ لك جزءًا منها. وبما أنكَ مسافرٌ غدًا فهل لي أن

أحمِّلك كتاباً لوالديَّ أسألهما فيه أن يسامحاني وأن يرضيا عني؟

فقال رمزي: حسناً تفعل، ولكن لا تذكر فيه أمر زواجك، وزودني بصورةٍ لكما أنت وزوجك. وسأكون بانتظارك هنا عند الساعة العاشرة غداً صباحاً.

حاول رمزي أن يعطيه بعض المال، ولكن شفيقا رفض قبوله رفضاً قاطعاً. فتأكّد رمزي من كبر نفس هذا الشاب وتربيته الصالحة.

وفي الموعد المحدد، جاء شفيق حاملاً الرسالة والصورة وطاقةً من الورد، لُفَّتْ بقطعة من القماش خُطَّ عليها: "عربون شكرٍ للسيد رمزي، وللقدر الذي رسم وهيَّأ الوسائل لتحقيق ما أراد".

فأخذها رمزي شاكراً له، وودعه بقبلة أبوية.

في اليوم التالي لعودته، ذهب رمزي إلى مكتب صديقه مالك الذي لاقاه بعبارات الترحيب والشكر على ما قام به من جهد للبحث عن شفيق.

فقاطعه رمزي قائلاً: اسمع يا صديقي، إن مهمتنا لم تنتهِ بعد، إذ إنّ هناك أمراً يحتاج إلى معالجة ملحّة.

نظر إليه مالكٌ نظرةَ تعجبٍ واستفسارٍ وقال: هل تريد القول بأن تلك المكالمة الهاتفية كانت فقط لطمأنة والدي شفيق؟

فأجاب رمزي: ماذا جرى لك يا صديقي؟ هل فقدت فعلاً ثقتك بي؟ اطمئنْ لقد كانت بكل تأكيد، مكالمةً صحيحة لا لبس ولا غشّ فيها.

ثم روى له بالتفصيل وقائع كل ما جرى معه حتى عثوره على شفيق، كذلك قصة زواج هذا الأخير بساندرا، تلك الألمانية الشقراء. وأنَّ ما قصده هو إعلام أبويه بزواجه وإقناعهما بالموافقة والمباركة.

فقال مالك: اعذرني يا صديقي، يبدو أنني قد أسأت التعبير، فلم أكن أقصد مطلقًا ما فهمته أنت من كلامي. أما كيفية عثورك على شفيق، فكأنها من الخيال. ولكنها مشيئة القدر الذي أراد ذلك وهيّأ السبل ونفذ إرادته. فسبحان الله. وأنا على استعداد للقيام بما تراه مناسبًا لإتمام المهمة. وأقترح أن نقوم سويةً بزيارة والديه، إذا لم يكن لك رأيٌ آخر، لإكمال ما بدأنا به. وأعتقد أن معرفتي بطباع وفكر ونفس كليهما قد تساعدنا في ذلك.

فقال رمزي: نعم الرأي، فما عليك سوى تحديد الموعد وإبلاغي.

في الموعد المحدد، طرق الصديقان باب يوسف الذي استقبلهما، وزوجته، بالترحيب والتأهيل. وقبل أن يتخذ رمزي مقعدًا له، ناول يوسفَ رسالة ابنه شفيق. فقرأها على عجل، احترامًا لضيفه، ثم أعطاها لزوجته التي قبلتها مرارًا قبل أن تبدأ بقراءتها بعينين مغرورقتين وقلب أمٍّ ملهوفة، ولسانٍ لا يتوقف عن الدعاء.

وبعد القيام بواجب الضيافة، حسب العادات اللبنانية، توجه يوسف إلى ضيفه قائلاً:

يا سيد رمزي، إن لساني يعجز عن التعبير عما نكنُّه لك، أنا وجميع أفراد أسرتي، من آيات الشكر والامتنان والتقدير على هبة الحياة التي أعدتها لنا في اللحظة التي كدنا نفقد فيها الأمل في العثور على ولدنا حيًّا يُرزق...

فقاطعه رمزي قائلاً: أنا أبٌ أيضًا يا سيد يوسف وكل الآباء يشتركون بالشعور نفسه تجاه أبنائهم مهما بلغوا من سني العمر.

فتدخل مالك وقال: يا صديقيَّ، يوسف ويسرى، لقد قصَّ عليَّ صديقي رمزي بالتفصيل حكاية بحثه ثم عثوره على شفيق، تقولانها قصّةً خُطَّتْ بيد كاتبٍ واسع الخيال ومن مشاهير كتَّاب القَصص.

وبعدما تشارك مع رمزي بإسماعهما وقائع تلك القصّة، انفرد مالكٌ بالكلام قائلاً: بعدما وطئت قدما شفيق "أرض

أحلامه" بأيامٍ قليلة أيقن أنه أخطأ باتخاذه قرار السفر استناداً إلى أقوال سمعها من أفواه شبّانٍ لا دراية لهم ولا تجربة، وأن المنطق كان يقتضيه استقاء المعلومات من مصدرها الصحيح، أي السفارة الألمانية في بيروت. كما أنّ كلَّ ما كان بحوزته هو اسم وعنوان فندقٍ من الدرجة الثالثة، وحفنة من المال ادّخره من عمله منذ بدأ بالتفكير في الذهاب إلى ألمانيا وحتى يوم سفره. فقد تبين له أن الحصول على العمل أمرٌ صعبٌ جداًّ وأن تلك الكمية من المال قد لا تكفيه لشهرين أو ثلاثة. ولكنَّ عزَّة نفسه جعلته يرفض فكرة الرجوع إلى الوطن خائباً. فاستأجر غرفة في منزل عائلة متواضعة الحال مما أتاح له توفيراً في كلفة العيش. ثم أصبح من رواد ذلك المقهى الذي يتجمع فيه أمثاله من متسولي العمل، والفرق بين تجمعهم وتجمع "الحمالين"، في بعض زوايا شوارع بيروت، أنهم يتحلقون حول طاولات المقهى يرتشفون القهوة أو الشاي.

صمت مالكٌ قليلاً عندما رأى أنَّ يُسرى لم تعد تتمكن من حبس قطرات الدمع في عينيها، بل ازدادت جريانًا على

وجنتيها برفقة صوت بكاء خافت يعبّر عما يجيش في قلب تلك الأمِّ الحنون حسرةً على حال ابنها البكر. أما يوسف فاصفرّ وجهه وخنقت الغصة حنجرته ولم يعد يقوى على النطق بكلمة تخفف عن شريكة حياته.

ثم عاود مالكٌ الكلام قائلاً: استمرَّ شفيقٌ على هذا المنوال ما يزيد عن الشهر، إلى أن قيّضَ الله له فتاةً ألمانية كانت ترتاد ذلك المقهى بتكليفٍ من إحدى المؤسسات الاجتماعية لدراسة أحوال أولئك الشبان الذين هجروا أوطانهم وأمّوا بلدها سعيًا وراء لقمة العيش. فيبدو أن سلوك شفيقٍ ومظهره قد لفتا نظرها، كما أسرَّت له فيما بعد، وأنهما يدلاّنِ على أنه ليس من طينة أولئك الشبان المتسكعين، فراحت تخصُّه بالحديث أكثر من غيره. ويومًا بعد يوم، ومن دون أن يدريا أصبحا صديقين، مما جعلها تطلع جيدًا على ما آلت إليه أحواله، فعرضت عليه أن ينتقل إلى شقتها التي تقيم فيها وحيدة حيث تخصص له غرفة مستقلة ومن دون بدل إجارٍ ما دام من غير عمل. فلم يجد شفيقٌ له مفرًّا من القبول، إذ أنّ ما تبقى بحوزته من المال سينفد

قريباً، وعندئذٍ يصبح واحداً من المشردين الذين ينامون في الحدائق العامة أو في زوايا أرصفة الشوارع متحاشين أعين الحرَّاس وأفراد الشرطة.

ولما لاحظ مالكٌ نظرات الاستغراب والدهشة يتبادلها يوسفُ ويسرى، التفت إلى صديقه رمزي طالباً الغوث. فاستجاب هذا الأخير فوراً وتناول الحديث، وقال:

لا تستغربا يا سيدة يسرى ويا سيد يوسف، فعادات الأوروبيين تختلف كثيراً عن عاداتنا. وإذا كنا نحن لا نتقبل هذا الأمر لأننا نتمسّكُ بما تقوله الأديان بأن سُكنى شابٍّ وشابة وحدهما في مسكن واحد سيقودهما حتماً إلى ارتكاب خطيئة الزنا، فهم لا يشاركوننا بهذه الحتمية لأنهم يرون أنها من الحرية الشخصية، وأن من الممكن أن يعيشا معاً من دون أي علاقة جنسية، ولأن هذه العلاقة لا تتمُّ إلاّ برضى وقبول الطرفين. وقد أخبرني شفيقٌ أن ساندرا، وهو اسم تلك الفتاة الألمانية، مسيحية الديانة ومتمسكة بكثير من تعاليم دينها ومن العادات التي تشبه عاداتنا،

وهذا ما جعلهما، يوماً بعد يوم، يزدادان تفاهماً وتقارباً، إلى أن تحولت صداقتهما حباً حقيقياً توجاه بعقد زواجٍ قانونيٍّ.

وقعت هذه العبارة على الوالدين كالصاعقة، وتجمّدت نظرات كلٍّ منهما في عيني الآخر، مذهولين صامتين لهنيهاتٍ كأنها ساعات، إلى أن استعاد يوسف رشده على صوت زغردة ابنته هاتفةً: يا لسروري وفرحي لقد تزوج أخي، كم أنا سعيدة...

فزجرها والدها وأمرها بالصمت. وأردف قائلا: هذا ما كنت أخشاه، لقد ضاع ولدي.

أما يسرى فتنهدت عميقاً ثم قالت بصوتٍ تخنقه غصّةٌ: آهٍ يا ولدي، لو كنت تدري كم حلمت أن أراك تأخذ بيد عروسك من والدها وسط أهازيج أترابك، والأهلُ والأصدقاءُ يشاركوننا فرحنا، لِما خيبت أملنا وحرمتنا من هذا العيد؟ سامحك الله.

فعاود مالكٌ الكلام قائلاً: يا صديقيَّ، ما حصل قد حصل ولا حول لنا في أن نعيد الزمن إلى الوراء. فهذه هي مشيئة القدر. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. وما نرجوه منكما، أنا وصديقي رمزي، هو أن تقبلا بالأمر الواقع وتباركا هذا الزواج، أبوين راضيين عن ابنهما.

ويبقى قلب الأمِّ ينبض بإحساس من المحبة والحنان تُجاه ولدها مما قد لا يفهمه كثيرٌ من الرجال. ولما رأت يسرى يوسفَ صامتًا شارد الذهن، أدركت ما يجيش في فؤاده، كيف لا وهي تعيش معه منذ نحو ربع القرن، فلم تدع له ثانية واحدة لينطق بما يعبر عن ذلك، فأسرعت إليه وضمته إلى صدرها بحنانها الذي طالما غمرته به، وقالت له: يا شريك العمر، إنه ابننا، كان ولم يزل وسيبقى ابننا مهما حصل. وسنبقى، أنت وأنا، والديه، نسامحه إذا أخطأ ونكون إلى جانبه في السراء والضرّاء، فإذا كانت بضعة أسابيع انقطعت فيها أخباره عنا، قد كادت تودي بكلينا إلى الهلاك، فماذا سيحلُّ بنا إذا انقطعت صلته بنا؟ وأنت رجلٌ وتعرف جيدًا مدى تعلّق الرجل بزوجته ثم بأولاده، حتى

لو أثر ذلك على علاقته مع أقرب الناس إليه، وهذا ليس عيباً بالتأكيد لأنه من سنن الحياة. فأرجوك ألا تقطع هذه الشعرة التي لم تزل تربطه بنا. ولنسعَ معًا، لا إلى عدم تنفيره منا فقط، بل إلى تنمية محبته لنا بزيادة تقربنا منه. وإذا كان الله قد رزقنا بثلاثة أولادٍ منهم ابنة واحدة فلنجعلْ زوجته تشعر بأنها ابنتنا الثانية.

ولم تكن ابنتهما بأقلّ حبًّا لشقيقها شفيقٍ، من والدتها. فقد لحقت فوراً بوالدتها، وجثتْ على ركبتيها أمام والدها وأخذت تقبِّلُ يديه، تسألهُ الاستجابة لرجاء أمِّها.

جالت كلماتُ يُسرى في أرجاء مخيلة يوسفَ، وكأنها شريطٌ سينمائيٌّ يصور ذلك الأسى والحزن اللذين قد يخيمان على ما تبقى له من العمر إذا ما خسر شفيقًا، ابنه البكر الذي طالما أمل أن يكون سنداً له في كِبَره ولسائر أفراد العائلة من بعده. فوقف وأخذ زوجته وابنته بين ذراعيه وخرج عن صمته قائلاً: يا زوجتي يا من رافقتني في السراء والضرّاء منذ خمسٍ وعشرين سنة، ويا بنيتي

الحبيبة، ويا صديقيَّ الكريمين، أنا أبٌ، والأبُ ليس بيده أن يتخلّى عن عاطفة الأبوة، ومهما أظهر من القساوة تجاه ولده ففي النهاية يبقى الحكم لقلبه، وحبُّ الأبِ لأولاده لا يقلُّ عن حبِّ أمِّهم لهم. وإذا كنت أرى أن ابني قد أخطأ في سفره ثم في زواجه، فكم من أبٍ وقف يدافع عن ابنه المجرم؟ فلا والله لن أتخلَّى عن فِلْذةِ كبدي، شفيقٍ. وهذا من تدبير القدر وعسى أن يكون زواجه هذا مباركًا بإذنه تعالى، وأن يكون فيه له من الخير أكثر مما أرجو.

ولم يكد يوسفُ يكمل كلامه حتى امطرته زوجته وابنته بوابلٍ من القبل. أما مالك ورمزي، اللذين شعرا بنشوة الانتصار، انطلقت منهما سوية عبارات المباركة والتهنئة. ثم انفرد رمزي قائلاً: أدام الله هذه المحبة في قلوبكم جميعًا. وبوركت نفسيكما أيها الأبوين، فقد وافقتما على ما اختاره ابنكما، حتى من دون أن تسألا عن شكل عروسه. فاسمحا لي أن أقدم لكما هذه الهدية.

فسحب من جيبه صورة شفيقٍ وزوجته وناولها يوسف. وما أن وقع نظره عليها حتى سال الدمع من عينيه، وهو يردد: تبارك الخلاّق فيما خلق، حقًّا إنها جميلةٌ جدًّا. فاختطفتها يسرى وراحت تتأملها، ودموع الفرح تملأ عينيها. ثم أعطتها إلى ابنتها قائلةً: ستكون هذه الجميلة، لا زوجة أخيك فقط، بل أختك أيضاً.

بعدها، قال رمزي: في الصيف القادم، إن شاء الله، يكون شفيقٌ قد حصل على الإذن القانوني للإقامة في ألمانيا، فسيأتي هو وعروسه لقضاء إجازتهما بينكم. وستكون بطاقتا السفر هدية مني لهما، مع تمنياتي لهما بزواج مبارك.

فعادت الأدعية بكل خيرٍ، تنهمر من أفواه العائلة على رمزي ومالك، حتى ما بعد انصرافهما.

ومع بداية فصل الصيف استقبلت العائلة ابنها المغترب وعروسه بكل سرورٍ ومحبة.

الكلب والعليقة[8]

الكثير من القرى في جبال لبنان، ينتمي أكثر سكانها إلى عائلتين، وقليلاً إلى ثلاث. وكثيراً ما تحمل نفوس أبناء تلك العائلات ترسبات التحزب القبلي، المتوارث عن الآباء والأجداد. وعلى الرغم من روابط النسب التي أوجدها التزاوج، فيما بين عائلتي كل من تلك القرى، فكنَّا نرى أبناءهما، حتى زمن غير بعيد، يثيرون الخلافات فيما بينهم لأتفه الأسباب. وأحياناً يتطور الخلاف إلى معارك دامية

[8] قصة مقتبسة من واقع حياة اللبنانيين. (أنهيت كتابتها في 2015/10/19)

ينخرط فيها معظم شبابهما، ومن تلك المعارك ما كان يؤدي إلى سقوط بعض القتلى. ثم يتدخل المصلحون لإصلاح ذات البين، فتهدأ النفوس، ولكن من دون أن تصفو.

في إحدى قرى الشمال كانت تعيش عائلتان يقتات أبناؤهما مما تنتجه أراضيهم الزراعية التي يقومون على زراعتها والعناية بها بأنفسهم. وكان الأب، إذا ذهب إلى أرضه، يصطحب معه، أولاده، الذكور والإناث، فيعينه كبارهم، وينشأ صغارهم على هذه العادة كي تصبح فيما بعد واجباً. وفي البداية يكون اللعبُ دورَ الصغار، وقد يكلفون ببعض الأعمال التي تتناسب مع أعمارهم وأجسادهم، إلى أن يقسوَ عودهم فيتولون المهمات كاملة. كما كانوا أيضاً يحضرون معهم كلابهم للحراسة وخاصة لحراسة صغارهم. وكثيراً ما كان الصغار يمضون معظم أوقاتهم باللعب مع كلابهم أو مع أترابهم من أبناء أصحاب الأراضي المجاورة.

وكان أصحاب الأراضي يتركون نبات العلّيق ينمو على حدود أراضيهم ليشكل فيما بعد سياجاً شائكًا يفصل بين أراضيهم وأراضي جيرانهم. وكان أحياناً يبلغ ارتفاع ذلك العليق ما يزيد عن المترين أو الثلاثة.

ويروى أن صغار مزارعَين جارين، من تلك القرية، كانوا يلعبون سوية، وكان كلٌّ من هذين المزارعين ينتمي إلى عائلة من عائلتي القرية، وكان صغار كلٍّ منهما يرافقهم كلبهم. اقترح أحدهم إجراء مباراة بين كلبي الفريقين، أيهما يجتاز العليقة قفزاً إلى الجهة الأخرى. ولما وافق الجميع، أمسك صاحب الاقتراح حصاة، ووضع يديه خلف ظهره وخبأها في إحدى قبضتيه، ثم مدَّ يديه أمام أحد أفراد الفريق الآخر، وقال له: إذا حزرت في أيّ من قبضتيَّ خبّأتُ الحصاة يكون كلبكم البادئ، وإلا فيكون كلبنا. هذا بعد أن حدد الفريقان جزءاً من العليقة ليكون موقع المباراة.

أخذ أفراد الفريق البادئ يركضون من نقطة محددة باتجاه العلّيقة ويشجعون كلبهم فكان لهم ما رغبوا إذ تمكن الكلب من القفز بسهولة، فتعالى صوت تصفيقهم وصياحهم فرحاً بالفوز. ثم جاء دور الفريق الثاني، فتمكن كلبهم من القفز أيضاً. ولكن أحد أفراد الفريق الأول اعترض قائلاً بأن بطن الكلب قد لمس العلّيقة. رفض الفريق الثاني هذا الادعاء. ثم دار اللغط بينهم: لمس بطنه، لا لم يلمس... وهكذا حتى تطور الكلام إلى صراخٍ فتضاربٍ بالأيدي. سمع والداهما وأشقاؤهما الصراخ فهُرِعا إلى "أرض المعركة". وعوضاً من أن يردع كل والدٍ صغاره، اشترك الجميع بالعراك.

وصدف أن سمع أصواتهم، كبيرُ إحدى العائلتين، في أثناء مروره بالقرب من ذاك المكان، وكان يتميز بالحكمة ورجاحة العقل والشخصية الفذَّة التي فرضت احترامها على أهل القرية أجمعين. أدرك أنها أصوات جماعة يتعاركون، فأسرع إلى حيث مصدرِها، وما أن رآهم على تلك الحال، حتى زجرهم بصوت جهوريٍّ جعل كلاً منهم

يتجمّد في مكانه. وبعدما عرف السبب وبَّخَ كبيريهم وأجبر الجميع أن يتصافحوا أندادًا، وأن يعتذر كلٌ منهم من الآخر. ففي تلك الأيام، كان احترام الكبير لم يزل واجبًا. ثمَّ طلب من الوالدين أن يحضرا إليه فور فراغهما من العمل.

في المساء، لم يتأخرْ أيٌّ من الرجلين عن المجيء، تباعًا، إلى "مضافة" ذلك الرجل الحكيم. وقد كان من عادات كبار القرى أو العائلات، أن يخصِّصَ واحدهم غرفة خارجية من داره يستقبل فيها ضيوفه من الرجال، وتسمى "مضافة". وكان يغلب على صاحبها لقبُ "الشيخ".

وبعدما قُدِّمت لهما القهوةُ "المرَّة بحبِّ الهال"، قال الشيخ: إنَّ ما رأيته اليوم أمرًا مخجلاً حقًّا. فعوضًا عن أن تزجرا أولئك الأطفال تصبحان فريقين متصارعين، أنتما وسائر أولادكما، وكأنكما أعداء؟ أنسيتما أنكما لستما من أبناء قرية واحدة فقط، بل تربط بينكما روابط النسب أيضًا وأنكما جاران؟ وأنَّ للجيرة أحكامَها وقواعدَها؟ وما دمتما

لا يمكنكما التسامح في أتفه الأمور، فما عساكما فاعلين إذا ما واجهتكما مشكلة كبيرة؟ أتريدان أن أجمع كبار العائلتين كي يتخذوا قراراً بإبعادكم، أنتما وأبناؤكما، من القرية؟

فأجاب أحدهما، بصوتٍ منكسرٍ: لا أيها الشيخ الكريم لا لزوم لذلك. وبعد الذي جرى بيننا اليوم، عدتُ إلى نفسي وفكرت في الأمر مليًا، فرأيت أن أقترح على جاري، أخي وصديقي، أن نبعث أولادنا إلى بيروت كي يتلقوا العلم فيها ما دامت أحوالنا المادية، والحمد لله، تسمح لنا بذلك، وليبتعدوا أيضًا عن جوِّ المشاحنات التي اعتدناها في قريتنا هذه.

فقال الآخر: إنه لنعم الرأي يا أخي. كما أني أضيف أن يتجاوروا بالسكن هناك أيضًا، فينشؤوا على الصداقة والمودة فيما بينهم، ويصبحوا فيما بعد قدوة لسائر أبناء عائلتينا.

وبعدما أثنى الشيخ على ذلك، تصافح الرجلان وتعاهدا على الصداقة والمحبة فيما بينهما. ثم ودعاه وانصرفا، يتأبط كلٌّ منهما ذراع الآخر.

مضت السنوات والأولاد يعيشون في بيروت معًا في جوٍّ من الصداقة والمحبة، وبأكثر مما رغب الأبوان، إلى أن أصبحوا رجالاً متعلمين مثقفين يحملون الشهادات العُليا. ولكنَّ ارتباط كلٍّ منهم بعملٍ يناسب مستوى علمه، منعهم من أن يعودوا للعيش في قريتهم. فمنهم من أصبح من كبار موظفي الدولة أو الشركات الخاصة أو المصارف، ومنهم من أسس عمله الخاص. وتشاء الأقدار أن تجمعهم في القرية إحدى العطل الصيفية. فكان لهم في ذلك فرصةٌ يزورون فيها، سوية، الأماكن التي تعيدهم إلى ذكريات الطفولة. وكان لتلك العليقة الشهيرة نصيبٌ من زياراتهم، فعادوا بالذاكرة إلى ذلك العراك الذي حصل بينهم. فقال أحدهم: لا درَّ درُّنا كم كنّا، وكبارنا، أغبياء، لقد كان من الممكن أن نُشعل قتالاً بين عائلتينا لسبب تافه: "لمس بطن الكلب العُلّيقة... لا لم يلمس...".

فردَّ آخر قائلاً: كلامك صائبٌ يا صديقي، وما كان ذلك إلا من جهل من أورثنا تلك العصبية القبلية. ولكنَّ في الحقيقة فإن "بطن الكلب قد لمس العُلّيقة."

وحقًّا صدق من قال: "الطبعُ يغلبُ التطبُّعَ". ومما يؤسف له أن اللبنانيين لم يتخلصوا، حتى أيامنا هذه، من تلك "العصبية القبلية"، وإن تبدلت أشكالها.

دامي السيلانية[8]

بعدما أنهى رمزي دراسة الطب في العاصمة البريطانية، لندن، ثم مدة التدرُّب الكافية في مستشفياتها، عاد، في أواسط خمسينيات القرن العشرين، إلى وطنه لبنان، آملاً أن يمارس مهنته في عيادته الخاصة. ولكن أحداث العام 1958، التي امتدت في لبنان لأكثر من ستة أشهر اضطرته إلى إقفال العيادة، قبل انتهاء تلك الأحداث بنحو الشهرين، إذ ساقَ له القدرُ عرض عملٍ مع إحدى منظمات الأمم المتحدة التي تعنى بالشؤون الإنسانية، لم يستطع رفضه، لِما كان لتلك الأحداث، من تأثيرٍ سلبيٍّ على حالته النفسيّة، وعلى عمله، فالعيادة تقع في أحد الأحياء التي شهدت أسوأ أعمال التقاتل فيما بين أبناء البلد الواحد، فكان يضطره الانتقال، من مسكن والديه إليها، أن يجتاز حيًّا آخر من تلك الأحياء. هذا بالإضافة إلى مَا كان يجيشُ في

[8] مقتبسة من قصة من واقع الحياة رواها لي الصديق الدكتور أندريه ديرلك عن لسان صديقه "رمزي"، أحد أشخاصها. (انتهيت من كتابتها في 2015/12/15).

نفسه من رغبة في خدمة الإنسانية، كيف لا وقد درس الطب لهذه الغاية.

كان مركز عمله مع المنظمة، في البداية، قريباً من منزل والديه في منطقة رأس بيروت، التي كانت خارج مسرح الأحداث. وفي تلك الأثناء تعرّف على ليلى، ابنة إحدى العائلات البيروتية المعروفة، وكانت قد تخرَّجت حديثًا في الجامعة الأميركية، حيث درست علم الاجتماع. وبعد بضعة شهورٍ تزوجا واستقلاّ في منزلٍ استأجراه في الحيِّ عينه.

لم يكن بعد قد مرَّ على زواجهما أكثر من ثلاث سنوات حين فرضت عليهما طبيعة عمله الانتقال إلى الهند، وكانا قد رُزقا بطفلتهما، سلمى، قبل ذلك بأشهرٍ قليلة.

لم تطل إقامتهم في الهند لأكثر من سنتين، لينتقل مركز عمل رمزي إلى كولومبو في سريلانكا، التي كانت لم تزل تُعرف يومها باسم "سيلان"، وفيها مكثوا بضع سنين. كما أنَّ تخصُّصَ ليلى، في علم الاجتماع، أتاح لها، العمل،

أيضًا، في المنظمة عينها. وهذا ما اضطرَّها إلى الاستعانة بمن يهتمُّ بالطفلة وبشؤون المنزل، فجاءها أحد زملائها في العمل، بامرأة سيلانية فقيرة الحال أمٍّ لثلاثة أيتام تدعى "أنولا". وما أن رأتها ليلى حتى توسمت فيها خيرًا، وخصّتها براتبٍ يساوي ضعف ما تتقاضاه مثيلاتها. كذلك كان رمزي، في كثيرٍ من الأحيان، يُجزِلُ لها العطاء مما كان يعتبره من قبيل الصدقة للأيتام.

ما رأته "أنولا" من أخلاق مخدومَيها وحُسنِ وإنسانية معاملتهما لها ولأفراد عائلتها، جعلها تتفانى في عملها وفي الاهتمام بطفلتهما، سلمى. وكثيرًا ما كانت تصطحب معها ابنتها "داميكا"، لتلاعبها، وقد كانت هذه تكبر سلمى ببضع سنوات، فكان هذا يُدخل السرور إلى قلب الطفلة، التي أطلقت على رفيقتها تلك، على طريقة الأطفال، اسم: "دامي". ثم أصبح الجميع يناديها بهذا الاسم الذي أحبته هي بدورها وصارت تطلب من الجميع مناداتها به.

بعد بضع سنوات، قررت المنظمة نقل عمل رمزي من سريلانكا إلى السودان. ولما علمت "أنولا" بذلك، رَجَتْ رمزي أن يصطحب ابنتها، "دامي"، مع عائلته، وكانت هذه قد بلغت سن الرشد، لعلها تعين والدتها في تحمل نفقات تنشئة وعيش شقيقيها اللذين ما زالا صغيري السنّ. فرحب بذلك كلٌّ من رمزي وليلى، خاصة أنَّ دامي أصبحت كأخت كبرى لسلمى تعرف ما يسيئها وما يسرها.

مضت الأيام والسنون والعائلة تنتقل، بحكم العمل، من بلد إلى آخر، و"دامي" تنتقل معها، كفردٍ منها، إلى أن قارب رمزي بلوغ سنِّ التقاعد. فتداول مع زوجته وابنتهما في أيِّ بلدٍ يفضلان الاستقرار بعد أكثر من ربع القرن من الزمن أمضَوه في التنقل المستمرِّ. فما سُمِّيت، خطأً، بالحرب الأهلية في لبنان، التي بدأت في العام 1975، كانت لم تزل مستعرة، ولذا استبعدوا فكرة العودة إلى الوطن، متناسين شعور الحنين إليه. كما أن سلمى لم تكن بعد قد أكملت دراسة الطب التي بدأتها، منذ أربع سنوات، في إحدى جامعات لندن. ولذا فقد وقع اختيار الجميع على

السكنى في هذه المدينة التي لها في قلوبهم موقعٌ مميز، فقد أمضى رمزي فيها عشر سنوات من شبابه لم تزل ذكرياتها تدغدغ مخيلته، وليلى، حبَّبتها بها أيامُ الإجازات التي قضتها فيها برفقة زوجها وابنتها، ولو لم تغرم بها سلمى، أيضاً، لما رغبت في الانتساب إلى الجامعة عينها التي درس فيها والدها.

وكان من الطبيعي أن تُبلّغَ دامي بهذا القرار. فكان جوابها بأنها منذ أول مرة دخلت فيها منزل هذه العائلة، يوم كانت تعيش في كولومبو، كانت تشعر دوماً بالدفء والحنان اللذين حرمتهما عيشة اليُتم. وأنها هي التي أقنعت والدتها في أن تسأل رمزي وليلى أن يصحباها يوم غادرا سريلانكا. وأنها مذ ذاك لم تشعر أبداً بأنها غريبة في هذه العائلة، وأنها كانت دوماً تتمنى بألّا تُجبرَ يوماً على فراقها ما دامت بعد لم تتزوج. ولذا رجتهما، رجاءً حارّاً، في أن يُبقياها تحت أجنحتهما أينما حلّا. فكان لها ما أرادت.

وبعد التاريخ المحدد قانونًا لحلول يوم سِنِّ تقاعد رمزي، وكانت ليلى أيضًا قد طلبت التقاعد المبكر، غادرت العائلة، ومعها دامي، إلى المملكة المتحدة لتستقرّ في إحدى الضواحي القريبة من لندن، والبعيدة عن صخبها وضوضائها، في منزل من طبقتين، متوسط الحجم، تحيط به حديقة صغيرة، كان رمزي قد اشتراه إثر اختيارهم العيش في هذه المدينة.

بعد مضيِّ بضعة أشهر، وفي عصر أحد الأيام، وبينما كان رمزي وليلى يشربان الشايَ على عادتهما، دخلت عليهما دامي طالبة السماح لها بالكلام، فأجاباها معًا: هاتِي ما عندك فنحن مصغيان.

فقالت: لقد مضى على عيشي بينكم سنواتٌ عديدةٌ، كانت غالبيتها العظمى في البلاد العربية، ما جعلني أكتسب لغتها وأصبحت أتكلمها بسهولة، فلم أكن بالتالي أشعر بأية غربة. ولكن منذ وصولنا إلى بلاد الإنكليز هذه، والشعور بالغربة يتملكني أينما كنت خارج المنزل. حتى حاجات

البيت لا أستطيع الذهاب لشرائها بمفردي، إذ لم يبقَ عالقًا في ذاكرتي سوى القليل جدًّا مما تعلمته في صغري في مدارس سريلانكا من لغتهم هذه. ولذا أرجو السماح لي بتعلّمها، إلّا إذا كنتما تريان ما يمنع ذلك.

فأجاباها معًا: لا اعتراض لدينا أبدًا، بل نُكبر فيكِ هذا الطموح. وتابع رمزي قائلاً: اتركِي هذا الأمر لي وسيكون لكِ ما ترغبين.

فشكرت لهما موافقتهما وانصرفت. وفي اليوم التالي ذهب رمزي إلى مكتب البلدية لتنفيذ وعده لها. ولما عاد إلى المنزل استدعاها وقال لها: لقد أتممت الإجراآت الرسمية لتسجيلكِ تلميذةً في مدرسة البلدية، ولحسن حظِّكِ أنَّ الدورة القادمة لتعليم الإنكليزية للبالغين تبدأ أول الأسبوع القادم، ولكن ساعاتها ستكون مسائية.

انحنت دامي على يد رمزي لتقبيلها، ولكنه لم يسمح لها وربّتَ على كتفها إشارة لها بالانصراف. فذهبت إلى

المطبخ لتحضير الغداء، ولسانُها لا ينفكُّ ينطقُ بعبارات الشكر والامتنان والدعاء لجميع أفراد العائلة.

مضت بضعة شهورٍ ودامي تذهب يومياً إلى المدرسة بكل نشاطٍ وسرور، تقولها تحاول التهام الكتب رغبة في سرعة التعلّم. وفي عصر أحد الأيام، وبينما كان رمزي وليلى، كعادتهما، في شرب الشاي، دخلت دامي عليهما طالبة الإذن بالكلام. فقالت ليلى ممازحة: لا تقولي هذه المرة بأنك ترغبين في تعلم الفرنسية؟

فأجابت مبتسمةً: لا يا سيدة ليلى فالأمر غير ذلك. فكما تعلمان، لقد مضى على عيشتي بينكم سنواتٌ عديدة، جعلتموني أشعر دوماً بأنني فردٌ من هذه العائلة الطيبة، وقد تشربت عاداتكم وتقاليدكم عن قناعة وإعجابٍ بها. وفي أثناء ترددي إلى المدرسة تعرفت على شابٍّ من وطني سريلانكا، يُدعى "ساندون"، يقف يومياً أمام مدخل المدرسة ليبيع "السندويش" من الطلاب والمارَّة، وهو يملك عربة سيارة مجهزة لهذه الغاية. ثم ما لبثنا أن أصبحنا

صديقين، ولكنه فاجأني بالأمس بعرضه عليّ الزواج، فأجبته بأن عليه أن يطلب ذلك منكما لأنّكما بمثابة والديَّ في غربتي هذه. فطلب مني سؤالكما تحديد موعد له لزيارتكما. فإذا رأيتماه مناسباً كزوج لي ووافقتما على طلبه، قبلتُ أنا به وإلّا فلا، وخاصةً أن خبرتك ومعرفتك، يا سيد رمزي، في طبائع وأخلاق الناس، تجعلك أقدرَ مني على التفريق بين الصالح والطالح منهم. وأنّ حسَّ المرأة لدى السيدة ليلى، في مثل هذه الأمور لا يقلُّ شأناً عن قدرة الرجل في معرفة ما تُخبِّئُه نفوسُ الرجال. فهل تسمحان له بزيارتكما لهذه الغاية؟

فقال رمزي: أجل وبالتأكيد وبكلِّ سرور، وحسناً فعلتِ، بل هذا مما عهدناه فيكِ من حسن الأخلاق والتربية والتعقل. فليأتنا في نهاية الأسبوع، وتأكدي بأننا سندرس أحواله جيداً، أنا وليلى، وكما سنفعل يوماً ما فيما يخصُّ ابنتنا سلمى.

وفي الموعد المحدد، جاء ساندون فاستقبله رمزي. وفي أثناء القيام بواجب الضيافة، على الطريقة اللبنانية، أخذ رمزي يبادله أطراف الحديث في أمورٍ عامة رآها تسمح له في معرفة طباع وإخلاق ضيفه ومبادئه في الحياة، من دون أن يشعر هذا بمراده. ثم انضمت إليهما ليلى، فتحول الحديث إلى التحقق من أموره الخاصة سواء في العمل أم في المال، كذلك فيما سيكون موقع وحال دامي إذا ما تزوجا، وإلى غير ذلك مما يطمئن نفسي أبوين على مستقبل "ابنتهما" في حياتها الزوجية المقبلة.

وبعد ما يزيد عن الساعة، استدعى رمزي دامي لمجالسة الضيف، ثم خرج هو وليلى للتداول في الأمر منفردين. لم تطلْ خلوتهما لتوافُقِ رأييهما على أنه صالحٌ لأن يكون زوجًا لدامي. فعادا إلى غرفة الاستقبال، ودامي تدقق، عبثًا، في تقاسيم وجهيهما لعلها تلحظُ علامة تدلُّ على نتيجة ما توصلا إليه، وكأنَّهما أُصيبا بما عُرف عن الإنكليز من برودة الطبع. ولما أخذ كلٌّ منهما مقعده توجه رمزي بالكلام إلى دامي قائلاً: أنت تعلمين يا دامي بأن

مصلحتك تهمنا، تماماً كمصلحة سلمى، وأننا نتمنى لكما دوماً كلّ ما فيه الخير. أليس كذلك يا حبيبتي ليلى؟

وبينما كانت ليلى تُثني على ما يقول، كانت دامي تتقاذفها أمواج محيرة، فهي لا تدري ماذا وراء كلامه، أهو قبولٌ أم رفضٌ؟

ثم يتابع رمزي قائلاً: لقد طال الحديث بيننا وبين ساندون، كي نعرفه جيداً ونعرف كيف وأين سيكون موقعك منه إذا ما أصبحتما زوجين، ونتمكن من تكوين رأينا كما طلبتِ. فاستنتجنا بأنه شابٌّ طموحٌ وذو أخلاقٍ حميدة وحَسَنُ النيّة، وقد تعهد أمامنا بأنك ستكونين معه معزّزة مكرمة. وعليه فإننا سنبارك هذا الزواج إذا ما رغبتِ أنت في إتمامه.

وبعدما أمطرتهما بعبارات الشكر قالت: لي عندك بعد، يا سيد رمزي، طلبٌ آخر.

فقال رمزي: وما هو؟

قالت: لقد كنتَ دومًا تُشعِرُني بأنّك في مقامِ والدي الذي فقدتُه طِفلةً، فآملُ أن تقبل رجائي، في أن تكمل دورَكَ هذا، وتكونَا، أنتَ وكيلي "إشبيني" والسيدة ليلى راعيتي، في مراسم زواجنا.

فقال رمزي: سنكون لكِ كما ترغبين، وبكل سرور ومحبّة، والله ولي التوفيق.

تمت مراسم الزواج، وانتقلت دامي إلى منزل زوجها. في البدء كانت تكلِّم ليلى، هاتفيًّا، مرة في كلِّ أسبوع، ثم مرّة في الشهر، إلى أن توقفت عن ذلك بعد نحو السنة.

وفي صبيحة أحد الأيام، وكان قد مرَّ بضع سنين على انقطاعها عنهم، سمعت ليلى رنين جرس الهاتف، وما أن وضعت السماعة على أذُنها حتى سمعت صوتًا، من الطرف الآخر، يقول، بالعربية: تحياتي سيدة ليلى، أنا دامي، أما زلتِ تذكرينني؟

أجابت ليلى: بكلِّ تأكيدٍ لم أزلْ أذكرك جيداً، كيف حالكِ يا عزيزتي؟

قالت دامي: الحمد لله، على خير ما يُرام. ولكن أرجو في البدء أن تُسامحاني، أنتِ والسيد رمزي، على انقطاعي عنكما هذه المدة الطويلة من الزمن.

قالت ليلى: لا عليكِ، المُهم أنكِ اليوم بخير.

فقالت دامي: إنّي أتشوق لرؤيتكم في منزلنا الذي انتقلنا إليه منذ فترة وجيزة، فأرجو أن تقبلوا، أنتِ والسيد رمزي والحبيبة سلمى، دعوتنا إلى تناول الغداء يوم الأحد القادم.

وبعدما شاورت ليلى رمزي في الأمر، أجابتها: بكل سرور، ولكن سنأتي أنا ورمزي فقط، لأن سلمى سافرت، منذ أيامٍ، برحلة عمل قد تمتد لأكثر من أسبوعين.

قالت دامي: لكما جزيل الشكر على قبول الدعوة وسنكون بانتظاركما، وإلى اللقاء.

وفي اليوم الموعود وصل رمزي وليلى إلى العنوان الذي زودتهما به دامي، فإذا هما أمام بوابة كبيرة خلفها دارة من ثلاث طبقات تحيط بها حديقة فسيحة غنّاء. أعاد رمزي النظر إلى الوريقة المكتوب عليها العنوان، ثم إلى الرقم الظاهر أعلى البوابة، فلم يجد أيَّ اختلاف، كما أنه متأكدٌ من أنه ولج الشارع عينه المسجل اسمه على تلك الوريقة. ثم سأل ليلى عما إذا كانت متأكدة من أنها لم تُخطِئ في كتابة العنوان، فأجابته بأن دامي أعادت تلاوته عليها ثلاث مرات حتى أنها تهجَّأت اسم الشارع مرتين. وبينما هما مترددان فإذا برجلٍ يخرج من البوابة ويقترب منهما سائلاً: ألستما السيد رمزي والسيدة ليلى، وتقصدان دارة ساندون ودامي؟

فقال له رمزي: أجل يا سيد.

فرحب بهما الرجل أجمل ترحيب قائلاً: أنا ساندون يا سيد رمزي. ثم فتح البوابة على مصراعيها طالبًا منه إدخال السيارة إلى باحة الدار. وما أن ترجلا حتى جاءت دامي

ولسانها لا يتوقف عن النطق بعبارات الترحيب باللهجة اللبنانية التي لم تنسها. ثم دعتهما إلى الدخول. وإذا بهما في بهوٍ كبيرٍ عالِ السقفِ تنيره ثُريّا عملاقة من البرونز والكريستال، وفيه من المقاعد والكراسي والتحف ما يجعلك تخال أنك في متحف.

ومن دون أن تنقطع عن الترحيب، دعت دامي كلاً منهما إلى اتخاذ مقعدٍ، في إحدى زوايا البهو، مشيرة إليه بيدٍ مفتوحة الكفِّ وذراعٍ ممدودة، ثم اتخذت هي وساندون مقعدين مقابلين لضيفيهما. وبما أن ساندون لا يفقه العربية، تحول التخاطب إلى الإنكليزية. وبعد أن كررت دامي الاعتذار لانقطاعها عن الاتصال بهما، أخبرتهما بأنها أصبحت أُمًّا لثلاثة أولاد، صبيين وبنت، الذين جاءوا، استجابة لإشارة والدتهم، لتقديم واجب الاحترام لهذين الزوجين الكريمين اللذين كانا السبب فيما هي وعائلتها عليه الآن.

وبعد الانتهاء من الغداء، دعت دامي الجميع لتناول القهوة، اللبنانية، في غرفة مفتوحة على البهو، أثاثها من الطراز الحديث المريح.

توجهت ليلى بالحديث إلى مضيفيهما قائلةً: التناسق بين قطع أثاث منزلكما والتناسب بالألوان يدلّان على ذوقٍ رفيع، أهنِّئكما على ذلك. جعله الله منزلاً مباركًا.

فقالت دامي: شكرًا لك سيدة ليلى على هذا الإطراء، والفضل في كلِّ هذا يعود لكما أولاً ولزوجي العزيز ثانيًا. فبعد أن تركت منزلكم وانتقلت إلى حيث كان يقيم ساندون أيام العزوبة، وكان عبارة عن غرفة وصالة ومنتفعاتهما، قال لي ساندون: إنني أكبر فيكِ قبولك السكن في منزلي المتواضع هذا، وما أريده منكِ هو أن تثقي بأنّني سأعمل جاهدًا كي يكون مسكنُكِ قصرًا، في يومٍ آملُ ألّا يكون بعيدًا. لم تمضِ مدة طويلة حتى حملتُ ابني الأول، وقبل وضعه استأجر ساندون شقة من غرفتي نوم وصالة وغرفة طعام، عشنا فيها حتى انتقلنا إلى دارنا هذه. كان يعمل بجدٍّ

وثباتٍ دائمين وكان، كلّما سنحت له الفرصة وتوفر له المال، يشتري عربة، لبيع "السندويش"، تلو أخرى، يشارك عليها شاباً ممن يثقُ بهم، حتى أصبح اليوم يملك منها خمساً وعشرين. ومنذ ثلاث سنوات عرض عليه مدير البنك، الذي يتعامل معه، شراء هذا البيت الذي كان البنك قد استملكه مقابل قيمة دين متوجبٍ له بذمة مالكه الذي مات ولا وارث له. وكان الثمن الذي عرضه البنك معادلاً لقيمة الدين، وبالتالي كانت فرصة لا تفوَّت. أما سبب تأخرنا بالانتقال إليه فهو حاجته للتصليح في بعض جوانبه، ثم تجهيزه وتأثيثه.

صمتت دامي قليلاً فتوجه ساندون بالكلام إلى رمزي سائلاً: ألا تحنُّ، يا سيد رمزي، إلى زيارة سريلانكا التي أمضيت فيها بضعَ سنين؟

أجابه رمزي: بَلا، فإنَّ لي فيها ذكرياتٍ جميلةً، وعدداً من الأصدقاء، لا أعلم من بقي منهم على قيد الحياة.

فقال ساندون: لقد سبق لي أن اشتريت فندقين، أحدهما في كولومبو والثاني في منطقةٍ سياحية، مصنفين في مستوى النجوم الخمسة. ويسرني جداً أن تقبلا استضافتي لكما، أنت والسيدة ليلى، لمدة أسبوعين في أحدهما أو كليهما، وفي أيِّ وقتٍ شِئتما.

فشكر له رمزي هذه البادرة الكريمة، وقال: سنبحث الأمر سويًّا، أنا وليلى.

فقال ساندون: ثِقْ، يا سيد رمزي، أنَّ دعوتي هذه ليست، أبداً، من قبيل المجاملة. وستبقى قائمةً وبانتظار تحديد الوقت الذي يناسبكما.

وبعدما كرر رمزي الشكر له، تحول الحديث بينهم إلى شؤون الأولاد ثم العموميات. ولما لاحظ رمزي أن الوقت قد قارب الخامسة، أشار إلى ليلى بأن وقت الانصراف قد حان، فطلبا الإذن لذلك، ولكنّ دامي دعتهما إلى القيام بجولة في أرجاء المنزل، قبل الانصراف.

بعد ذلك، ودّعا مُضيفيهما، وما أن صارت السيارة خارج سور الحديقة، حتى قال رمزي لليلى: لست أدري يا حبيبتي أفي حُلُمٍ نحن أم هي حقيقة؟ لقد أمضينا، أنتِ وأنا، عشرات السنين، في الدراسة ثم العمل، وحصلنا على أعلى الشهادات العلمية، ولم نجمع من المال سوى ثمن هذا المنزل الذي نسكنه وهذه السيارة ورصيد حسابٍ متواضع في المصرف نعيش منه ومن راتبينا التقاعديين. وها هو ساندون يبني أمبراطورية، من بيع السندويش، في عقدٍ ونيّفٍ من الزمن.

لا أقول هذا من قبيل الحسد أبدًا، بل أتمنى له دوام التوفيق، وهذا ما أراه من سُنن الكون، فكما أن الإنسان لا يدري في أي وقت أو أي أرض يموت، فهو لا يدري، أيضًا، كم هو مقسوم له من الرزق. فسبحان من وضع هذه النواميس التي تجعل الإنسان في عملٍ وجهدٍ دائمين ساعيًا لما هو أفضل.

اللين والعنف[8]

يروى أن حواراً جرى، يوماً، بين الشمس والريح، حول طبائع البشر.

قالت الشمس: باللين يمكن أن نحصل من بني الإنسان على ما نريد.

[8] قصة رمزية من حكايات الآباء. كتبتها يوم 2015/12/21.

قالت الريح: بل العنف أفعلُ معه. فهو مخلوقٌ ضعيفٌ، وبالعنف نُجبره أن ينفِّذ ما نأمر به.

قالت الشمس: فلنجرِّبْ والتجربة أكبر برهان. أترين ذلك الرجل الذي يسير في الصحراء واضعًا عباءته على كتفيه؟

قالت الريح: أجل.

قالت الشمس: هل بإمكانكِ أن تجعليه، وبالعنف، يضع العباءة عن كتفيه؟

قالت الريح: أجلْ، وبكلِّ تأكيد.

قالت الشمس: وكم تحتاجين من الوقت لهذا؟

قالت الريح: بضعَ دقائق.

قالت الشمس: دعينا نرى.

فبدأت الريح تسوق الغيوم حتى حجبت نور الشمس، فانخفضت الحرارة على الأرض. ثم راحت تعصف بشدة

وتأخذ معها حبيباتٍ من رمول الصحراء، مكونة عاصفة رملية. وإذا بالرجل يلتفُّ بعباءته ويتمسّك بها جيداً. وكلما ازدادت الريح عنفاً ازداد هو تمسكاً بعباءته والتفَّ بها أكثر فأكثر.

مضى على ذلك نحو الساعة من الزمن، ولم تُفلِح محاولاتُ الريح أن تُثنِيَ الرجل عن التلفف بعباءته.

فقالت لها الشمس: الآن، وقد مضى على محاولاتك أضعافُ ما طلبتِ من الوقت، فدعينا نجرِّبُ اللين معه.

فقالت الريح: لكِ ما تشائين.

قالت الشمس: توقفي أنت الآن عن العصف والزفير ولتنقشع الغيومُ التي سقتِها.

فاستعادت السماء صفاءها وأرسلت الشمسُ أشعتها رويداً رويداً، فارتفعت الحرارة شيئاً فشيئاً، وراح الرجل يتحرر من تلافيف عباءته، ولم تمضِ بضع دقائق حتى خلعها عن كتفيه.

فقالت الشمس للريح: أرأيتِ كيف حصلنا، باللين، على مبتغانا من هذا الإنسان؟

فقالت الريح: أجل. والآن فهمت أن الإنسان، وإن كان ضعيفَ الجسد، فيجب أن يُساسَ بالعقل لا بالقوة والعنف كما تساقُ سائر الحيوانات.

العنز والشاة[8]

معروفٌ أنَّ الشَّاة صاحبةُ أَلْيةٍ تُغطِّي مُؤَخرتَها، بينما العنزُ ذاتُ ذنبٍ قصيرٍ متجهٍ، بطبيعته، نحو الأعلى، ما يجعل مؤخرتها مكشوفةً دوماً.

---

[8] الشاة: الواحد من الغنم، يكون للذكر والأنثى. والغنم: الشاء، لا واحد له من جنسه. والعَنْزُ: الماعِزَةُ، وهي الأُنثى من المِعْزَى والأَوْعالِ والظِّباءِ، والجمع أَعْنُزٌ وعُنُوزٌ وعِنازٌ. (لسان العرب). والشاة والشاء بمعنى.
قصة رمزية من روايات الآباء. (كتبتها في 2015/12/24).

ويروى أنَّ عنزاً وشاةً كانتا ترعيان في أرضٍ جبلية كثيرة الصخور. وبينما كانت الشاة تتنقل بحثًا عن الكلأ، اضْطُرَّت أن تقفز من فوق إحدى الصخور فارتفعت مع القفز أَلْيَتُها وانكشفت للحظة مؤخرتها.

رأت العنز ذلك فقالت لها: ألا تخجلين من كشف مؤخرتك؟

فأجابتها الشاة: إنّي لأعجب من أن تعيبي أنتِ عليَّ انكشافَ مؤخرتي مرةً ولهنيهةٍ فقط، بينما مؤخرتك أنتِ دومًا مكشوفة ولا تشعرين بالخجل. وكُثرٌ أمثالك ممن لا يرون عيوبهم، بينما هم دائمو البحث عن عيوب الآخرين.

ولقد صدق من قال: "لو رأى الجمل سَنَامَهُ لوقع وكسر رقبته".

ذكاء وبداهة صبيٍّ[8]

بالأمس قرأت في إحدى الصحف اللبنانية خبر استدعاء الطفل حسين سعد، ابن الثماني سنوات، إلى المحكمة العسكرية بتهمة الاعتداء على قُوى الأمن قبل سنتين، أي يوم كان ابن السنوات الست، وتبين أن تشابه الأسماء كان سبب استدعائه. فعادت بي الذاكرة، لأكثر من أربعة عقود،

[8] أنهيت كتابتها في 2016/1/14.

مسترجعًا طُرفَةً رواها لي الصديق الدمشقيُّ، إحسان حنيف، رحمة الله عليه، إذ قال:

كان في دمشق طبيبٌ يدعى إبرهيم الساطي، رحمه الله[8]، وكان يتصف بمحبة الناس وعمل الخير ومساعدة الفقراء، وهذا ما جعله ذائع الصيت في معظم أحياء دمشق وخاصة الشعبية منها. ولكنه كان يتميز بجسدٍ مفرطٍ في السُمنة قد يبلغ قطره نحو المتر. وإذا ما أراد ركوب "الحنطور" (عربة الخيل)، فكان يقتضي أن يُمسك بالجهة الأخرى من الحنطور، وبشدّة وقوة، أربعة أو خمسة شبانٍ أقوياء البنية، وإلّا انقلب الحنطور والحصان معًا.

وحدث مرة، في أحد الأسواق المكتظة بالمتسوقين والباعة، أنَّ صبيًّا، لم يكن بعدُ قد بلغ الحلم، صدم، بدراجته، سيدة أجنبية كانت تعيش في دمشق، بحكم عملها في إحدى المؤسسات التابعة لبلدها، فأمسكت به واستدعت شرطيًّا كان بالقربِ من مكان الحادث وشاهد ما حصل. فجاء هذا

---

[8] توفي في العام 1948.

الأخير وبيده دفتر محاضر تسجيل المخالفات، فطلبت منه تلك السيدة تسجيل شكواها لمعاقبة الصبي، وقد كانت تتكلم العربية بقليلٍ من الصعوبة.

سأل الشرطي الصبي: ما اسمك؟

قال: إبرهيم الساطي.

- أين تقطن؟
- في حيِّ الميدان.

وبينما الشرطي منهمكًا بكتابة المحضر، أطلق الصبيُّ لقدميه العنان هاربًا، وتغلغل بين جموع الناس وضاع أثره.

أخذت الشكوى مسارها القانونيَّ حتى وصلت إلى المحكمة المختصة التي استدعت بدورها الفريقين المسميين في المحضر. وفي الموعد المحدد نادى القاضي عليهما فوقف كلٌ منهما في المكان المخصص له أمام منصة القضاء، وقبل أن ينظر القاضي إلى الماثلين أمامه، إذ كان بصدد

فتح ملف الدعوى والاطلاع على أوراقها، بدأ بكلام موجهٍ إلى المدعى عليه قائلاً:

إبرهيم الساطي، أنت متهمٌ بأنك في يوم كذا كنت ممتطياً دراجة هوائية...

وقبل انتهائه من نطق كلمته الأخيرة هذه، كان قد رفع ناظريه، فتوقف عن الكلام حين رأى ذاك المشهد المفاجئ، وكأنه من مسرحية فكاهية، المرأة تكاد تقع أرضاً مغشياً عليها من شدة الضحك، يقابلها رجلٌ تقوله جبلاً من لحم وعظم. فاستغلَّ هذا الأخير صمت القاضي وقال: يا سيدي القاضي، دعني أتمكن من ركوب دراجة هوائية لدقيقة واحدة وبعدها أودعني السجن عاماً كاملاً.

فانفجر القاضي وجميع من في قاعة المحكمة بالضحك والقهقهة. ولما هدأت الأصوات، كانت السيدة المدعية قد أدركت ذكاء وبداهة وفطنة ذلك الصبي الذي تخلّص من المأزق ولم يورّط أحداً، فبادرت بطلب سحب شكواها

وبالاعتذار من هيئة المحكمة ومن الدكتور إبرهيم على ما تسببت له من إزعاج وحرج.

فأصدر القاضي قراره بإقفال ملف الدعوى وشطبها حسب الأصول لانتهاء الخصومة بين فريقيها.

ويكمل صديقي قائلاً: ويقال، إن تلك السيدة من شدة إعجابها بذكاء وسرعة بديهة ذلك الصبيِّ، نشرت فيما بعد إعلانًا في إحدى الصحف الدمشقية تطلب من الصبي أن يأتيها واعدة إياه بأنها على استعدادٍ للتكفّل بنفقات تعليمه حتى الجامعة.

الأعمار بيد الله[8]

ولد يوسفُ في الربع الأول من القرن الماضي، في إحدى بلدات شمالي سهل البقاع اللبناني، وعاش ومات فيها.

[8] مستوحاة من قصّةٍ من واقع الحياة رواها لي أحد الأصدقاء من أبناء بعلبك. كتبتها في 2016/4/26.

ورثَ عن والديه أراضٍ زراعية أمنت له دخلا، لم يكن ليبعد عنه العوز فقط، بل أمن له عيشة راضية. وعلى الرغم من ذلك فقد كان يقيمُ وحيداً، لا زوجة له ولا أولاد، في منزلٍ ريفيٍّ متوسط يعكس وضعه المادي. لم يكن وحيد أبويه، إذ كان له منهما أربعة إخوة وشقيقتان، وكان هو أصغرهم جميعاً. وكان لكلٍّ منهم عيشته الخاصة، شقيقتاه واثنان من أشقائه كانوا متزوجين ولكلٍّ منهم عائلته ومسكنه الخاص، كذلك شقيقاه العازبان كان كلٌّ منهما يعيش في منزلٍ مستقل عن غيره.

لم يكن يوسفُ بعد قد أكمل العقد الرابع من سنوات العمر يوم انتابته وعكة صحية اضطرته إلى زيارة الطبيب للمرة الأولى في حياته. وبعد إجراء الفحوص والاختبارات الطبية اللازمة، قال له الطبيب: يؤسفني أن أبلغَك بأنك مصابٌ بمرضٍ لا شفاء منه. وأعتقد أنك لن تعيش لأكثر من ستة أشهر.

فوجئ يوسف بهذا النبأ ولم يصدقه ولم ييأس. فذهب إلى بيروت قاصداً إحدى أهم مستشفياتها حيث أجريت له الفحوص والاختبارات التي أشار بها نخبة أطباء، لا المستشفى فقط، بل أطباء بيروت أيضاً. هذه المدينة التي اشتهرت، ولم تزل، بكفاءة وخبرة أفراد جسمها الطبي في أقطار الشرق الأوسط جميعها. ولكن للأسف جاءته النتائج والأجوبة متطابقة مع ما قاله طبيبه الأول.

عاد إلى بلدتِه ومنزلِه وهو يغوص في بحور التفكير العميقة، إلى أن اتخذ قراره بأن يتمتع بكلِّ ثانية من دقائق تلك الأشهر الستة التي بقيت له في هذه الدنيا. فباع أول قطعة أرضٍ من أملاكه بأفضل سعرٍ عُرضَ عليه.

لم يستثمر ثمن البيع للبحث عن علاجٍ قد يعود عليه بالشفاء من مرضه، ولا في تحسين إنتاج سائر أراضيه، بل راح يوظفه في الحصول على كلِّ ما رآه يومها من ملذات الحياة الدنيا، سواء في السفر أم المأكل أم المشرب، لا

فرق عنده بين النهار والليل. ولما نفد ذلك المال باع قطعة ثانية. ثم الثالثة، واستمرَّ على هذا المنوال.

مضت الأشهر الستة ولم يمت يوسف، ومرَّ السابع والثامن والتاسع وهو على قيد الحياة، ولكنه لم يغير من نمط عيشه الجديد، إلى أن باع آخر ما يملك من العقارات، فيما عدا المنزل، وكان قد مضى نحو العامين على تلك الأشهر الستة. وقبل أن ينفد ما بحوزته من النقود، تُوفيَ شقيقه الأكبر، ولم يكن ذا ذُرِّيةٍ، فأصابَ يوسفَ نصيبٌ من وِرثِه. فأكمل مسيرته التي اعتادها في البيع في سبيل المسرات.

مرّت السنوات وأقارب يوسف يموتون الواحدُ تلو الآخر، وهو حيٌّ يُصيبه نصيبٌ مما ترك الكثيرون منهم، ويتابع هو سيره في عيشة اللهو والمرح والملذات.

وعوضًا عن أن يموت بعد الأشهر الستة التي حددها له الأطباء، أمدَّ الله بعمره عشرات السنين، ليموت بعدما

جاوزَ السبعين، ومن دون الحاجة إلى زيارة أي طبيبٍ أو ابتلاع أي دواء. فسبحان من بيده تحديد الأعمار.